مكتبة الأسرة 2000

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الإبداعية

قنديل أم هاشم

يحيى حقى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

قنديل أم هاشم

يحيي حقي

فهرس

صفحة

- اشجان عضو منتسب
  (سيرة ذاتية بقلم : يحيى حقى) ٩
- قنديل ام هاشم ٥٧
- السلحفاة تطير ١٢٣
- كنا ثلاثة ايتام ١٣٩
- كن ٠٠ كان ! ١٥٣
- القديس لا يحار ١٧١
- بينى وبينك ١٨٣

أشجان عضو منتسب

سيرة ذاتية بقلم يحيى حقي

مطلوب مني أن أكتب هنا سيرتي الذاتية ،

التحدث عن النفس !

ياله من لذة ساحرة ، تواضعها زائف ،

ياله من ملل فظيع ، يستحب معه الانتحار .

أغلب أحاديثنا — بعد كلمتين ليس غير — تتحول من الموضوع — أيا كان — إلى الذات ، الشكوى أو الافتخار ، ولكني أحس أنهما ينبعان من نزعة واحدة متكتمة : استجداء تبرير الوجود .

وأنت معذور حين تقرأ هذه السيرة بعد قليل إذا حكمت — ولا أقول ظننت — أنني لكي أكتبها قد تزينت وجلست أمام

مرآة أتغزل ، (كم أود أن يكون بين الاختبارات النفسية دراسة مجاوبة الشخص لصورته فى المرآة : العجب ، عدم التصديق ، الافتتان ، النفور) ولكن ثق – وهذا عشمى فيك إن كنت لاتعرفنى – أن شيئا من هذا لم يحدث . أنقذتنى حيلة بسيطة ، التجأت إلى مقص قطع لى فقرات من أحاديث عديدة ظهرت لى فى الصحف والمجلات (يملأون فراغها على قفانا بالمجان !) ولصقت بعضها إلى بعض ، مضيفا هنا ، منقحاً هناك ...

ومع ذلك فصورتى فى هذه المرآة هى جلسة أمام فوتوغرافى محترف ، يسلط على أضواء أعشى لها ، وأعوج رقبتى لكى تعتدل فى نظره ، وأبتسم بلا سبب ، صورتى فى هذه الأحاديث مأخوذة خطفا – أحيانا وأنا فى مباذلى ، فهى أصدق . وهكذا أبرأت ذمتى منك وزيادة .

ولكن هذه السيرة ستقيس عمرى بالسنين والأيام ، وما هو بالقليل .. طظ ! لا قياس عندى لعمرى إلا بهذه اللحظات القليلة النادرة التى نبض فيها عرق فى روحى مهتزاً بجذل قدسى عند التقائى بالفن ، متلقياً ومعبراً . قمة هذا الجذل عند التقائى بالشعر والموسيقى – على قدم المساواة – ثم النحت ، ثم التصوير ، ثم العمارة . لست أدرى أين أضع بينها لقائى برشاقة الإنسان فى فن الباليه .

يعلو كل هذا جذل اللقاء بفن أعظم وأجل : فن الطبيعة وجمالها ، لو أفضت فيه لاحتجت أن أكتب مجلداً ضخما .. لحظات قليلة نادرة ، ولكنني عرفت بفضلها طعم السعادة وحمدت ربي عليها حمدا طويلا لا ينقطع ..

ولا ولوج إلى ساحة السعادة — فى اعتقادى — إلا من أحد أبواب ثلاثة : الإيمان والفن والحب ، لا شىء يشع بها مثل هذا الخشوع الذى أراه فى المعابد . وإذا كان الحب هو أكثرها التصاقا بالصلصال والحمأ المسنون ، وبالزمان والمكان والصدف ، فإنه شرط ارتفاع الإنسان عن مرتبة الحيوان ، وكان الإيمان أكثرها طموحا لأنه يطلب الله لا الناس ، الخلود فى الآخرة لا العبور فى الدنيا ، فسيبقى الفن وسطا جامعا للطرفين ، يالها من منزلة !

وقد عرفت مقامى منذ وعيت لهذا العرق الذى ينبض فى روحى ، لست من الملهمين ، ولا لى صاحب فى وادى عبقر . الإلهام نور ساطع كاشف لجميع آفاق الروح والعالم ، يهبط على

من يختاره دون سبب ظاهر ، فيتلقاه بغير سعى منه إليه . ما أبعد الفرق بين هذا النور وبين أزيز الشرارة الخاطفة التى أحس بها وهى تتقد أحياناً فجأة ثم تنطفىء لتوها . إنها لاتنير لى إلا درباً ضيقاً وسط غابة كثيفة ، يؤدى إلى كنز صغير لايفرح به الأثرياء .. حتم على أن أشرئب لكى أصطادها (وضعت هذا فى قطعة بعنوان «الشاعر بصير» ستجدها فى أحد مجلدات هذه الطبعة) — تنطفىء هذه الشرارة وتتركنى لكى أشقى غاية الشقاء ... حتى يتفصد العرق من جبينى من أجل أن أصل إلى هذا الكنز الذى رأيته — بل قل حلمته — من بعيد ، كأننى أنحت فى صخر . وحتم على أن أزيل عن العمل كل آثار العرق ، ليظن الناس أنها ولادة سهلة .

إننى ممن يدخلون معبد الفن من أشد أبوابه ضيقا وعسرا ، وليست هذه الشرارة بزوارة ، لهذا كنت من المقلين ، أسمعهم يعيبون هذا على ، كأنهم يطلبون منى أن أكون من المدلسين . . يكفينى الصدق .

ومع هذا فان عمرى القصير فى الفن — إنه مجموع لحظات خاطفة عابرة — قد جاوز نصف قرن ، وأحمد الله على ذلك ، لأن هذا الطول أتاح لى أن أشهد فى نفسى تحولا عجيبا ، ولولاه لما شهدته .

كانت الذات تندلق على الموضوع فى مطلع هذا العمر . هذا الاندلاق سهل ، وله فرحة ، واسترضاء للأنانية . وكنت

أشعر بشيء من الضيق دون أن أعرف سببه على وجه اليقين سببه أنني كنت خاضعا لبداية لابد منها : إنها مرحلة ستمر ولكن متى وكيف .. إنها حموة الموسى !

وبدأ التحول شيئا فشيئا حتى تم أواخر عمرى ، أصبحت الآن أحس إحساسا واضحا قويا أنني لست إلا بوقا ، لا قيمة له فى ذاته ، ولكن قيمته أن إرادة لاندرى سرها قد اختارته لكى تهمس منه — على تقطع — سليقة اللغة والتراث ، مختلطة بأشجان الإنسان منذ أعز أجدادى — ساكن الكهوف — حتى اليوم .. أشجان الإنسان — أولا — فى علاقة روحه بربه ، نسيانه لها — كما قال هو فى كتابه — أشد عذاب تتوجع له وتئن .. بالكون : أين وكيف ينسلك فى نظامه ، يدخل خانته .. بالقدر : بين الثورة عليه والرضاء به .

ينعكس هذا كله على المجتمع المتقلب ليستطيع أن ينطق بلسان إنسان ويجد من يفهمه ، فليس من المفارقات قولى : إن الفن للفن هو المدخل الوحيد للفن من أجل الحياة .

ورغم أن هذا البوق قد عزلنى فقد استطعت أن أعوض لذة البوح بلذة المراقبة ، كأننى شاهد واقف على جنب ، يطل على شيء عجيب يحدث أمامه ، ويحاول فهم سره ، ثم لاينقضى عجبه منه ، الفن بهذا المعنى هو النغمة لا الوتر ، الزهرة لا البستانى ، النشوة لاقينة الحان .

ولو بقيت وحدى لزهقت روحى ، أو جفت وذرتها الرياح ، لا بد للنحلة من خلية :. وجدت الصحبة والراحة والاطمئنان ، كما وجدت المدرسة التى أستكمل فيها تعليمى حين قدمت ما رضيت عنه من أوراقى إلى ناد عجيب. إنه وقف على من لمسهم الفن بعصاه السحرية ، أياً كان عصره أو لغته أو دينه أو جنسه أو لونه ، والرجال والنساء سواسية — هم داخله أحياء ، بينهم تواصل الأخوة وتراسل لا ينقطع ، فسمح لى أن أنضم إليه ، عضوا منتسبا !

عرفت أننى — حتى قبل انضمامى إليه — كنت أكتب لهم . هم الذين يطلون على من وراء كتفى وأنا أكتب ، أصبح رضاؤهم هو مطلبى الوحيد . لا تخلو ورقة لى من أثر خاف لبصماتهم ، أو من إشارة مستترة إلى أعمالهم ، فلغة أهل هذا النادى صريحة «وشفرة» فى آن واحد ، ولا تجد حريتها إلا فى استعبادهم لها .

وأول مادة فى قانون هذا النادى هو توقير الكلمة سواء كانت من حروف أو أنغام أو حجر أو لون .

لا طرد من هذا النادى لجريمة سوى جريمة العبث بكرامة هذه الكلمة .. فماذا يبقى لهم ؟ .. ليس لهم جزاء سواها .

***

رضيت بنشر هذه الطبعة الكاملة لمؤلفاتى لقيمتها التاريخية أولا ، فالمتاحف قد تكون أولى بها من المكتبات — فأنت ستطل

على مسار نصف قرن ، يفترق عن المسارات الأخرى ، فإنه لم يأخذ من حيث انتهى سابقه مع تماثل أو تقارب فى المستويين ، بل أخذ بدايته من البداية ، فكتبت له الريادة ولو رغم أنفه ، لذلك كانت خطواته الأولى عسيرة متخبطة .

كان علينا فى فن القصة أن نفلك مخالب شيخ عنيد شحيح ، حريص على ماله أشد الحرص ، تشتد قبضته على أسلوب المقامات ، أسلوب الوعظ والإرشاد والخطابة ، أسلوب الزخارف والبهرجة اللفظية والمترادفات ، أسلوب المقدمات الطويلة والخواتيم الرامية إلى مصمصة من الشفاه ، أسلوب الواوات والفاءات والثمات والمعذ لكات والرعمذ لكات واللاجرمات والبيدأنات واللاسيمات ، أسلوب الحدوتة التى لايقصد بها إلا التسلية .

كنا نريد أن ننتزع من قبضة هذا الشيخ أسلوبا يصلح للقصة الحديثة كما وردت لنا من أوربا ، شرقها وغربها (ولا أتحول عن اعتقادى بأن كل تطور أدبى هو فى المقام الأول تطور أسلوب) .

كان علينا أن نضرب على يد من يحكى لنا قضية جنائية ، ويقول اكتبوها فهى قصة جميلة حقا ، ونقول له : القصة شىء مختلف أشد الاختلاف . وكان علينا آخر الأمر أن يقبل الناس إدعاء إنسان ما أن له الحق فى إعادة صياغة الواقع ، حتى ولو وقف عند هذا الحد ولم يضف قوله : إعادة صياغة بحرية لها أخلاقياتها

التي قد تعد عند الناس زيفا أو اجتراء ، كان من العسير أن يتقبل الناس هذا ، وأعترف لك أنني إلى اليوم أنتفض من شدة الضيق والكرب حين أقرأ : الفنان الخالق ، فلان خلق هذا العمل ...

إنى لا أعترف بخالق إلا بالله وحده ، أحب أن أكتب بدلها : هذا هو ابتكار الفنان ، الفنان المبتكر ، (لعل هذا هو سر موقف المسلمين — ولا أقول الإسلام — من النحت والتصوير) .

وكان لابد لنا أن نعمل حتى يكف الناس عن سؤالنا : وما هو المقصود من هذه القصة ؟ تلك العبارة التي كانت ترد بعد ختام كل حكاية فى كتاب القراءة والمطالعة ، فالمقصود من حكاية أن عدوا عاقلا خير من صديق جاهل ، وأن العاقل من اتعظ بغيره والجاهل من اتعظ بنفسه .

ومما زاد من المشقة والعسر فى الخطوات الأولى أن الفصحى لم تكن قد أفلحت بعد فى أن تسمى لنا أشياء نلمسها بأيدينا أو أفكارا مجردة تطوف بعقولنا ، أو ظلال عواطف تلم بقلوبنا ، وإذا صدقنا عددا غير قليل من المستشرقين لاعتقدنا أن هذه المشقة لم تكن عالقة بمرحلة البداية وحدها ، بل هى ممتدة لأنها ناجمة من خصائص الأسلوب العربى ، فهم يصفونه بأنه أسلوب يسير على خط أفقى مستقيم ، سطح ولا عمق ، لا يتركب منه بناء ينمو شيئا فشيئا ، إنه دلق البضاعة كلها دفعة واحدة أمام الزبون ، إنه — كما فى مآدبنا —

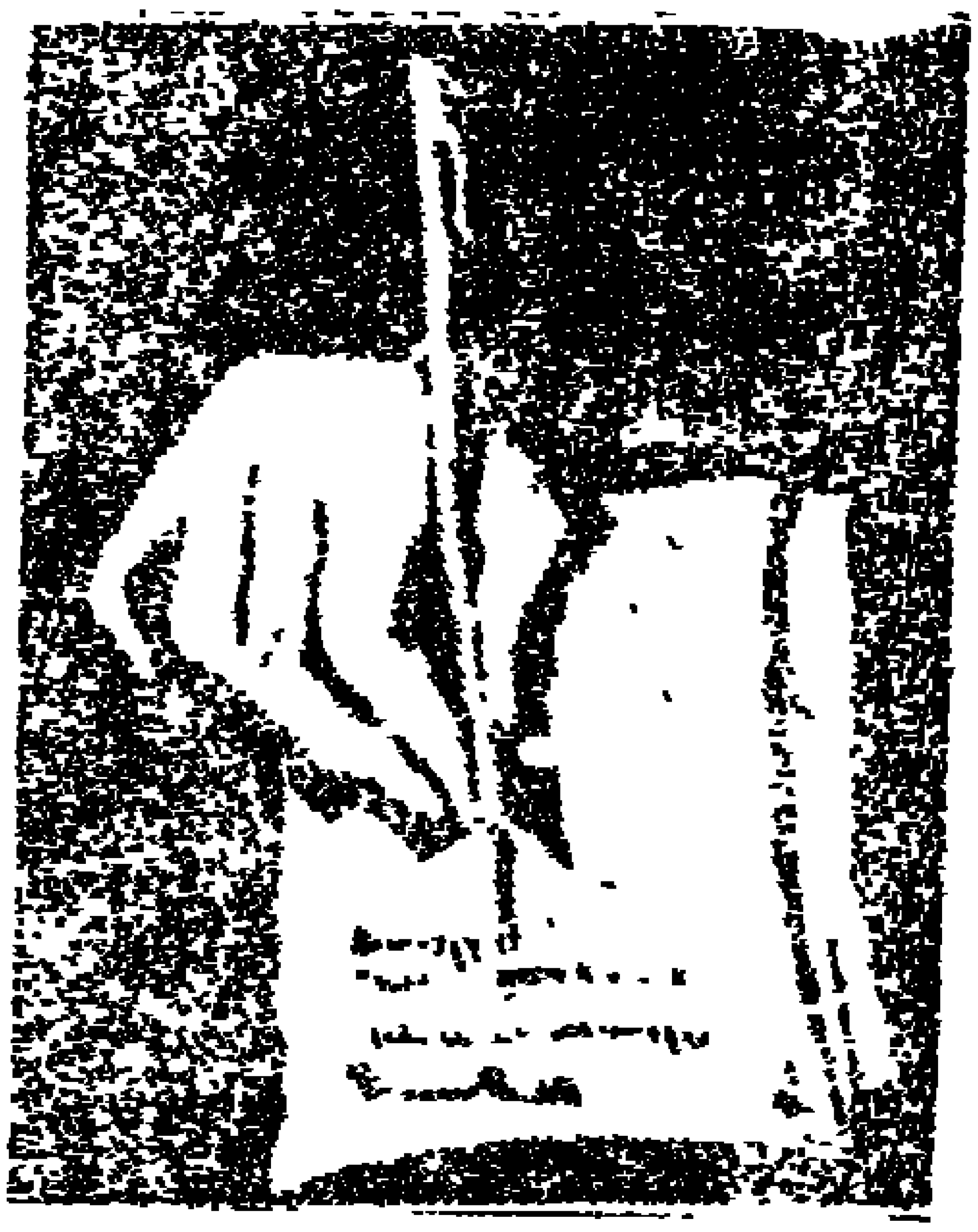

وضع جميع الأطباق على المائدة فى رتل متلاصق قبل جلوس الضيوف ، فالذى ينبغى أن يؤكل ساخنا يؤكل باردا ، ويزعمون أن أسلوب اللغات الغربية — وبالأخص الإنجليزية والفرنسية — هو أسلوب يشبه عمل فنان يرسم لوحة ، إنه يبنيها خطا خطا ولمسة بعد لمسة من فرشاته ، ناظرا طوال الوقت إلى التناسب والشكل التركيبي للوحة وموضع كل خط وكل لمسة فيه ، بل إنهم يذهبون إلى حد تفضيل الجملة الاسمية — وهى من خصائص لغاتهم — على الجملة الفعلية وهى من خصائص العربية ..

وكل هذا كذب فى كذب ، وحماقة ليس بعدها حماقة ، فليست اللغة كائنا مستقلا عن الفكر الذى يقودها ، فحين يلزم الفكر المستخدم للعربية ماينبغى لكل فكر ، من وضوح وبصر وجد

وعمق ، فإن لغتنا الفصحى لن تكون أقل قدرة على الأداء من لغات هؤلاء المستشرقين الأجلاء ، فالعيب ليس فى اللغة ، بل فينا نحن أنفسنا .

ولكن ينبغى لى أن أعترف وأقرر أن مشقة الخطوات الأولى فى انتزاع أسلوب القصة من أسلوب المقامات تمثلت أكثر ماتمثلت لدى من كان يقرأ الآداب الغربية بلغتها غير مكتف بالترجمات إن وجدت ، فإن الذى كان يراد اقتباسه من الغرب لا فن القصة وحده بل أسلوبها وصياغتها . وتستطيع إلى اليوم أن تلحظ الفرق بين أسلوب قصصى له اطلاع على الآداب الغربية بلغاتها وأسلوب قصصى لا يعرف غير العربية .

وقد داعبتنا اللغة العامية أول الأمر فهممنا أن نجرى إليها — لا هربا من مشقة الفصحى فحسب — بل لأننا كنا نتلهف أن يكون الأدب صادق التعبير عن المجتمع ، ولكننا تحولنا — كأنما بدافع غريزى — إلى الفصحى ، لأنها هى الأقدر على بلوغ المستويات الرفيعة ، على ربط الماضى بالحاضر ، على توحيد الأمة العربية ، ومن الممتع أن تدرس كيف ساير تأثير العروبة على الأدب المصرى تأثيرها على سياستنا القومية .

ومما زاد من المشقة والعسر فى الخطوات الأولى أننا — نحن القصصيين — كنا نعيش فى شبه عزلة عن أبناء الفنون الأخرى ،

مع أن المشكلة عندنا جميعا واحدة ، ولا بد أن ينتفع بعضنا بتجارب بعض . لكي يتساوى الخطو إلى الأمام على الأقل فى جميع ميادين الفن . بسبب هذه العزلة كان لابد لعملنا أن يكون هشاً وفقيرا مهما ملك من ماله الخاص ، (لهذا الفقر أسباب أخرى سأعرضها فيما بعد) أقول : كنا فى شبه عزلة ، إذ كانت لنا اتصالات لم تتصف بالنشاط مع أبناء الفنون الأخرى . نعد أنفسنا زمرة واحدة تضمنا وتضم مختارا ، وسيد درويش ، ويوسف كامل ، وأحمد صبرى .. وعددا آخر غيرهم .

والعجيب أن هذه العزلة ممتدة حتى اليوم ، بل يخيل لى أنها تفاقمت . وكان المنتظر وقد زاد عدد المشتغلين بالفنون اليوم عن عددهم فى أيامنا الأولى أن تعمل هذه الزيادة على تيسير القضاء على تلك العزلة ، فإذا بها تزيدها مشقة ، فلا لقاء فى زحام شديد .

* * *

لم نكد نضع أقدامنا على أول الطريق حتى طارت بنا آمالنا ، كأن القصة وقد سكتت لاقتحامنا لحماها ، فأردنا أيضا أن ندخلها بحمارنا ، لم نكتف بالاقتداء بالقصة المستوردة ، بل أصبحنا نطمع فى أن ندخل تجديداً على شكلها داخل إطارها الذى عرفناه لها أى دون أن نخرج عنه ، فكان منا من سبق إلى كسر الترتيب الزمنى ولجأ إلى « الفلاش باك » ، أو من زعم أنه كتب قصة لها شكل دائرى ، أى تنتهى من حيث بدأت .. الخ الخ .

ثم قفزنا بعد ذلك سريعا إلى مطلب أهم ، أن تكون لنا قصة مصرية لحما ودما ، تنبع من خصائصنا وتدل علينا . . لكننا لم نستطع أن نتقدم فى هذا الطريق (لذات الأسباب التى وعدتك أن أعرض لها فيما بعد) وكان لابد لهذا المطلب أن ينتظر حتى تمد الفنون الشعبية رواقها فى ظل الاشتراكية ، وتمثل تحقيق هذا المطلب أكثر ما تمثل فى المسرح .

يجب أن أعترف أن أغلب المنجزات فى هذا الميدان غير مقنعة ، وتبدو أحيانا مضحكة . إن اعتناقنا للاشتراكية لم يفرض أن يندرج أدبنا وآداب الأمم الاشتراكية فى وحدة واحدة ، ناجمة من وحدة المذهب ، أو وحدة المجتمع الذى قام أو يراد إقامته ، ولكننا قلنا إن اشتراكيتنا مصرية ليست صورة طبق الأصل من نظام اشتراكى أجنبى . لذلك ساغ حتى فى ظل الاشتراكية السعى إلى ظهور أدب محلى صميم .

وبجانب هذا التيار تيار آخر ، تيار ثقافة مترفة تقول بعالمية الفن دون نظر إلى انقسام هذا العالم إلى اشتراكية ورأسمالية ، فالفن عنده جوهر واحد لايقبل الانقسام ، وله هدف واحد لايتعدد .

وقد حاولنا عقد صلح بين التيارين فقلنا : إن كان الفن نهرا عظيما فلأنما له روافد عديدة ، كل منها له ذاتيته وخصوصيته ، ويجب أن نعمل وفقا لهذا الفهم .

لكى أشرح الأسباب الأخرى لهذا الفقر الفنى الذى عانيه فى مراحلنا الأولى دعنى ألجأ إلى التشبيه فإنى من المغرمين به ، حصيرة الصلاة عندنا ، قد تعد نقوشها — مهما بلغت بساطتها — تعبيرا عن ذوق فنى جميل وأصيل ، ولكن اقلبها وتأملها ، ستجدها مجدولة من ساقين لا غير من سيقان القش، حتى بالعرض وحده ، دون الطول ، ارتفاع سطحها عن الأرض يحدده غلظ الساق وحده ، حقا لها ظاهر وباطن ولكن ليس لها عمق . قارن بها سجادة عجمية ، دعك من فنون سطحها — بهرجة ووقار وأصالة مولودة فى عصر حديث — اقلبها وتأملها ، ستجدها سيمفونية من خيوط متشابكة من عقد عديدة ، وكلما زادت العقد زادت القيمة ، لها دون الحصيرة عمق وتشابك .

كان المجتمع الذى بدأنا كتابة القصة فيه يشبه هذه الحصيرة ، فكان لا بد للقصة أن تكون مثلها فى البساطة والسطحية ، وكيف تريد لها أن تثرى وتتعمق دون أن يكون بجانبها حركة نشيطة فى الفلسفة ، فى الاجتهاد الدينى ، فى الدراسات التاريخية واللغوية — مجتمع بسيط ، لا انكشاف بعد فيه لفروق بليغة ومصادمات بين المصالح ، كان هناك جوار لا اشتباك .

إن ثراء تسيج المجتمع فى الحضارة الغربية ليس سببه تشابك خيوطه فحسب ، بل لأن هذا التشابك يجد أسانيده فى مقولات

الفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد ، ولكن المجتمع الغربى يشترى هذا الثراء الآن بثمن باهظ ، هو تفتت الشعب إلى خلايا مغلقة على ذواتها ، لا تدافع إلا عن مصلحتها هى أولا ، فلنحذر هذا ..

وقد تجلى هذا الخلاف بين حصيرة الصلاة والسجادة أكثر ما تجلى فى الترجمة ، فهى ليست نقل لفظ إلى لفظ ، وحتى لو كان الأمر كذلك ففى اللغات التى نترجم عنها تنشأ كل يوم تقريبا ألفاظ جديدة ليس لها مقابل عندنا ، إنها ليست ألفاظا مبتكرة ، فقد انقطع عهد الابتكار فى اللغة ، بل هى ألفاظ مألوفة ولكن خصصت لها معان جديدة لم تكن لها من قبل ، فاستقلت بها دون معانيها السابقة ، أومع معانيها السابقة ، وأصبحت الألفاظ غير معبرة عن معانيها فحسب ، بل عن علاقات يعكسها نسيج المجتمع .. فلا يمكن أن نترجم سجادة عجمية إلى حصيرة صلاة .

ولا ينطبق هذا الكلام بطبيعة الحال على الترجمة فى ميدان العلوم ، ولكن أصدق مثال عليه تجده فى المسرح ، وهو أكثر الفنون عكسا للمجتمع إذ يتكلم بلغته . ما أكثر ازدحام مكتبتنا العربية بمسرحيات مترجمة ، لماذا لانعترف أن العديد منها غير مفهوم ، بل بعضها يدعو إلى الضحك .

لا شك أن مجتمعنا يتحول بسرعة من هذه الحصيرة إلى تلك السجادة ... ومع انتشار التعليم ومحو الأمية سيبرأ إنتاجنا الأدبى

من الضحالة والسطحية ، ومن هذا القدر الهائل من البديهيات ، وكل بديهية لها رنين الحكمة ...

كل هذا ولم أقل لك كلمة واحدة عن سيرتى وحياتى .. إليك بعضا مما تريد ..

***

فى أوائل القرن التاسع عشر قدم إلى مصر من مسلمى المورة شاب اسمه ابراهيم حتى ، كانت خالته الست حفيظة — خازندارة قصور الخديوى اسماعيل ، وبواسطتها عين قريبها الوافد فى خدمة الحكومة المصرية . عمل فترة بدمياط ، وتدرج فى الوظائف حتى أصبح مديرا لمصلحة فى بندر المحمودية بمديرية البحيرة .

وظل أهل ذلك البندر يذكرون له — بعد وفاته بسنوات — صلاحه وتقواه وجمال خطه . وقد رزق ابراهيم حتى بثلاثة أبناء هم محمد ، ومحمود طاهر ، وكامل ، واستطاع أن يقتنى حوالى : مائة فدان .

التحق ابنه الأكبر محمد — وهو أبى — بالأزهر عدة سنوات ، ثم انتقل للدراسة بمدرسة فرنسية ، ولكنه لم يصبر حتى يتم تعليمه ، وآثر الالتحاق بوظيفة بوزارة الأوقاف ، وإن ظل مشغوفا بالقراءة ، مغرما بحفظ روائع الأدب العربى القديم ... روى لنا أنه خلال مجاورته بالأزهر كان يصلى الجمعة ذات مرة فى مسجد غاب عنه إمامه ، ولأنه كان معمما فقد دعاه المصلون إلى ارتقاء المنبر وإلقاء الخطبة ... فلم يجد مخرجا من تلك الورطة إلا أن يتلو عليهم جزءاً من مقامات الحريرى أوله « أيها السادر فى غلوائك ... » فدهش المصلون لفصاحته وحضور بديهته ، وإن لم يفهموا من الخطبة شيئا !

وكذلك لم يتم الابن الأوسط محمود طاهر حقى — وهو عمى — تعليمه ، ولكنه اتجه بكل قواه إلى الكتابة والتأليف ، ومن أهم مؤلفاته رواية «عذراء دنشواى» التى نشرها مسلسلة سنة ١٩٠٦ فى صحيفة كان يصدرها اسمها « المجلة الأسبوعية » ، وكان الشاعر أحمد شوقى ينشر فيها بعض قصائده بأسماء مستعارة .

ولعمى محمود طاهر حتى عدد كبير من القصص والمسرحيات بعضها مطبوع ، وقد عمل فترة طويلة سكرتيرا للفرقة القومية منذ كان مديرها الشاعر الكبير خليل مطران .

وفى المحمودية كان من الطبيعى أن تتوثق العلاقة بين أسرة جدى وأسرة « السيد حسين » وكيل مكتب البريد ، فهو الآخر من أصل تركى وزوجته أرناءوطية (ألبانية) . وما لبثت هذه العلاقة أن تطورت إلى نسب ، إذ تزوج الابن الأكبر محمد من « سيدة » ابنة السيد حسين . وأثمر هذا الزواج عددا كبيرا من الأبناء ابراهيم ، واسماعيل ، ويحيى ، وزكريا ، وموسى ، وفاطمة ، وحمزة ، وصالح ، ومريم ...

كنت أنا الابن الثالث بين إخوتى ... ولدت فى ٧ يناير سنة ١٩٠٥ بحارة الميضة وراء مقام السيدة زينب فى بيت ضئيل من أملاك وزارة الأوقاف . ورغم أننا غادرنا حى السيدة وأنا لا أزال طفلا صغيرا ، فهيهات أن أنسى تأثيره على حياتى وتكوينى النفسى والفنى ، فما زلت إلى اليوم أعيش مع الست « ماشاء الله » بائعة الطعمية ، والأسطى حسن حلاق الحى ، وبائع الدقة ... ومع جموع الشحاذين والدراويش الملتفين حول مقام « الست » ..

كانت والدتى شديدة التدين ، مغرمة بقراءة القرآن الكريم وكتب الحديث والسيرة النبوية ، وكانت تختار أسماء أبنائها من

صفحات القرآن ، فاذا اقترب موعد الوضع فتحت المصحف على أى صفحة واختارت أول اسم يقابلها ... وكثيرا ما كانت تقرأ علينا صفحات من البخارى والغزالى ومقامات الحريرى ....

وكان أبى مفتونا بالمتنبى يحفظ كثيرا من شعره ويلقيه علينا فى جلساتنا المسائية ... وكان مغرما بالقراءة إلى أبعد حد حتى إنه كان يقرأ وهو يسير فى الطريق ... وما زلت أذكر كيف عاد لنا ذات يوم وجبهته مبطوحة قد نبتت فيها حبة زرقاء ، فقد صدم عمود الترام ، وهو سائر يقرأ فى صحيفة !.

وهكذا نشأت فى بيئة تعشق القراءة... والدتى وأبى .. وكذلك أخى الأكبر ابراهيم الذى يعرفه جميع باعة الكتب فى مصر ، جديدها وقديمها ... لقد كون لنفسه مكتبة عربية وانجليزية كانت أول معين استقيت منه ... وقد شارك أخى ابراهيم فى تحرير جريدة « السفور » ... أما أخى اسماعيل فقد ألف مسرحية لم تمثل ، بالاضافة إلى جهود عمى محمود طاهر حقى فى القصة والمسرحية والصحافة . .

أذكر أنه حينما كانت تظهر قصيدة لأحمد شوقى فى الصفحة الأولى من « الأهرام » كان البيت كله يقف على رجل .. كنا نقرؤها بصوت عال ونحفظها ونظل نرددها فى مختلف المناسبات . من هذه القصائد قصيدته فى البكاء على خلع السلطان عبد الحميد وما زلت إلى اليوم أحفظ مطلعها :

«سل «يلدزا» ذات القصور هل جاءها نبأ البدور
لو تستطيع إجابة لبتك بالدمع الغزير»

وكان عمي محمود طاهر على صلة وثيقة بشوقي ، وعن طريقه أتيح لى الجلوس إلى شوقي عدة مرات سواء فى محل «صولت» الحلوانى أو فى بيته . وفى إحدى تلك المرات أعطانى قصته «أميرة الأندلس» وهى مخطوطة لأبدى فيها رأيى ، وكنت وقتها لا أزال شابا فى السادسة عشرة ، ومع ذلك فقد تجرأت ونقدتها بشيء من العنف ، وكان ذلك غرورا منى ندمت عليه فيما بعد ...

كان الجو الغالب على بيتنا يتلخص فى ثلاثة مظاهر :

الأول : شغف برشاقة اللفظ ، والابتهاج بالتوفيق فى العثور على الكلمة المناسبة للمعنى . لذلك كانت الخطابات التى نتبادلها تكتب بأسلوب أدبى متأنق .

الثانى : نوع من الحياء يتنبه لزلة اللسان مهما كانت طفيفة .

والمظهر الثالث يتمثل فى قدر من الانطوائية لأننا كنا أسرة موظفين من أصل تركى وليست لنا أملاك تذكر ، بعد أن أساء الأبناء إدارة الأراضى التى ورثوها عن جدى ، حتى أصبح وجودها كعدمه ، ثم ما لبثت أن تبددت .

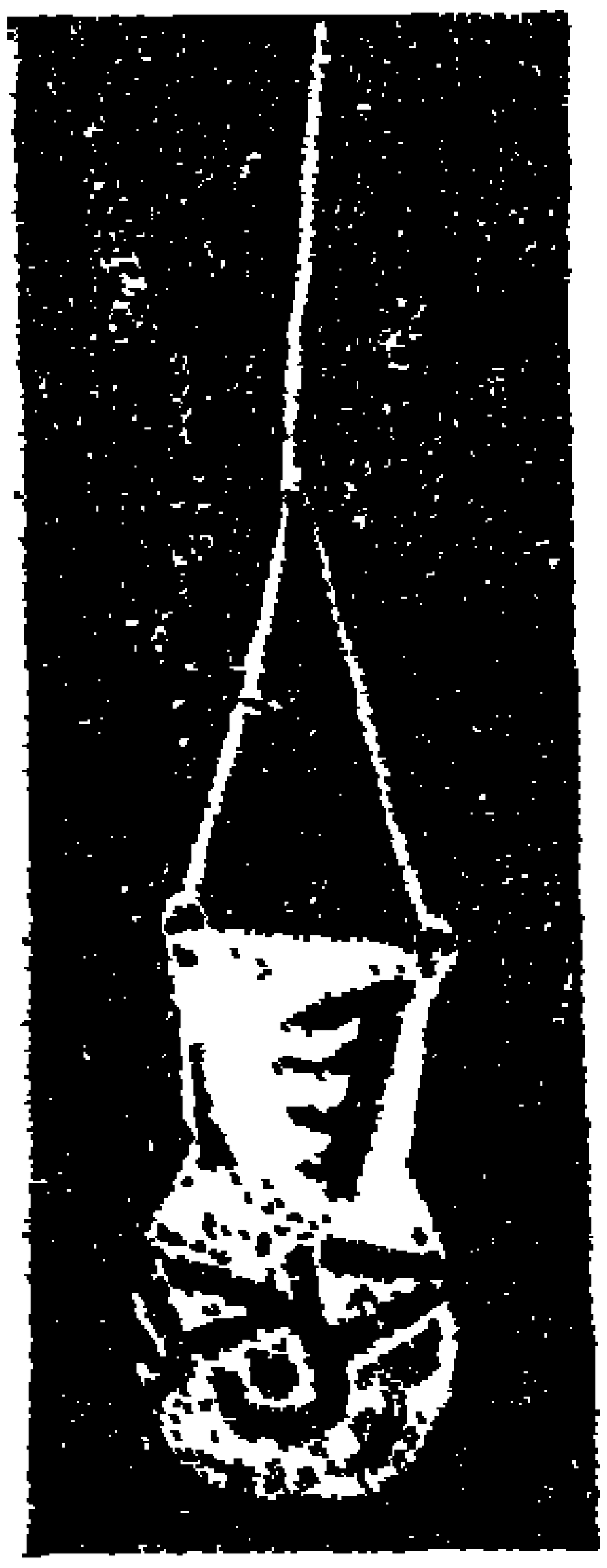

بدأت تعليمى فى كتاب السيدة زينب ، ثم التحقت — كسائر إخوتى — بمدرسة والدة عباس ، وكانت مدرسة مجانية من أوقاف إلهامى باشا ، وكان يلتحق بها أبناء الفقراء فى حين كان أبناء الأغنياء يلتحقون بمدرسة الناصرية . وكانت تلك المدرسة تخلع على تلاميذها حللا خاصة كتب عليها بالقصب المذهب « مدرسة والدة عباس باشا الأول » .

قضيت فى المدرسة الابتدائية خمس سنوات غاية فى التعاسة .

كانت ضربات عصى المدرسين تجعل الدنيا تظلم فى عينى ، كما كنت أتعذب عذابا هائلا وأنا أحشر دماغى بمعلومات لا أكاد أفهم منها شيئا ولا لماذا يعلمونها لنا ... أؤكد لك أنى لم أفهم الفرق بين الرى

الدائم وري الحياض إلا بعد أن تخرجت وعملت معاون إدارة فى الصعيد ..

كان طبيعيا أن أرسب فى السنة الأولى الإبتدائية ، ولكنى لم أرسب بعد ذلك قط .. كنت أنجح كى أفر من هذا الجحيم ، ولكى لا أغضب أمى أو أجرعها خيبة الأمل .. كانت هى عماد الأسرة .. ربتنا بيديها ، تخيط ثيابنا ونحن ستة ، تطبخ وتطعمنا متكلفة فى ذلك أشد العناء ، متحايلة للوصول بنا مستورين لآخر الشهر . إذا قدمت لنا طعاما نزرا لايغنى ولا يسمن من جوع ضاحكتنا وصبت علينا ضحكة مرحة ، كأنما اجتماعنا حول المائدة لعبة مسلية ، فكنا — على ضحكها — ونحن نعلم أنه تمثيل ، نجد الطعام وفيرا مشبعا لذيذا ، وهى التى ربتنا بلسانها ، تحثنا بغير إلحاح على الاستقامة والجد والمذاكرة ، كسوط صاحب الجواد الأصيل ، له وقع وليس له لسع .

لايفوتنى أن أذكر لمدرسة « والدة عباس » ميزتين :

الأولى أنها هى التى خرجت الزعيم مصطفى كامل ، فقد كان بيته قريبا منها ، وحينما التحقت بالمدرسة كان كل المدرسين الذين علموه قد تركوها الا واحدا هو الشيخ عبدالمنعم ، وكان يلقى الاحترام والتبجيل من الجميع لأ نه كان يوما مدرسا للزعيم .

أما الميزة الثانية لتلك المدرسة فتتمثل فى تلك الصداقات العميقة التى ربطتنى بعدد من تلاميذها ، فمازلت محتفظا إلى اليوم بصداقتى للأستاذين محمد عصمت ومحمد لبيب الجبالى ، ومازلت أذكر بالخير صديقى المرحوم محمد ذو الفقار الأخ الأكبر للممثل صلاح ذو الفقار ، والمرحوم مصطفى حسن النائب العام السابق .. كلهم تعرفت بهم فى مدرسة « والدة عباس » الابتدائية ..

حصلت على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية سنة ١٩١٧ ، والتحقت بالمدرسة الالهامية الثانوية (بنباقادن الآن) وكانت تتبع نفس الوقت الذى تتبعه مدرسة «أم عباس» ، ومنها حصلت على شهادة الكفاءة ، ثم انتقلت إلى المدرسة السعيدية ، فالخديوية ومنها حصلت على البكالوريا سنة ١٩٢١ وكان ترتيبى الخمسين بين المتقدمين لتلك الشهادة .

كنت فى صباى أتمنى أن أصبح طبيبا لأنى أعشق اكتناه ذلك المجهول الكامن داخل جسم الإنسان ورأسه ، فأردت أن أتفرغ لدراسة أسباب علله وأمراضه ، وأسهم فى إسعاف من يحتاجون إلى العون والمساعدة ، وكذلك كنت أومن بأن المهنة الحرة هى أفضل عمل للانسان فهو فيها سيد نفسه . . وبعد حصولى على الكفاءة وقفت فى مفترق الطرق . . .

كان من الطبيعى أن ألتحق بالقسم العلمى لأحقق أمنيتى ولكنى

خشيت أن أرسب سنة أو أكثر ، وأشفقت أن أحمل الأسرة مزيدا من الأعباء والمصروفات ، فآثرت الالتحاق بالقسم الأدبي .

والتحقت بعد ذلك بمدرسة الحقوق العليا ، فى وقت كانت تمثل فيه قمة التعليم العالى ، لا يدخلها إلا المحظوظون ، وكان من زملائى فيها الأساتذه: توفيق الحكيم، والدكتور عبدالحكيم الرفاعى وسامى مازن ، وعبد الكريم أبو شقه ، والمرحوم حلمى بهجت بدوى . ودرس لنا نخبة من أساتذة القانون وفقهائه ، أذكر من بينهم الاستاذ الشيخ أبوزيد مدرس الشريعة .. كان رجلا دائم الابتسام يعالج الشريعة حتى يحيلها شرابا سائغا لو استطاع لصبه فى حلوقنا صبا . . والأستاذ أحمد أمين ، العالم الثبت فى قانون العقوبات ، والمرحوم الدكتورأحمد نجيب الهلالى.. حين دخل علينا أول مرة حسبناه — لنحافته وصغر سنه — تلميذا مثلنا ، وما كاد يتكلم حتى انعقدت ألسنتنا وفغرت أفواهنا إعجابا به ، فقد هدم فى درسه الأول كل ما بين أيدينا من كتب قديمة بالية بكلام جديد تشع منه الحياة . .

حين التحقت بكلية الحقوق كنت متشبعا بمبادىء الحزب الوطنى ، فقد كانت « اللواء » هى جريدة الأسرة المفضلة ، وإن لم يمنعنا ذلك من التعلق بسعد زغلول ومتابعة أحداث ثورة ١٩١٩ بحماسة شديدة ، فما أكثر ماكنت أصحب أبى وشقيقى

إبراهيم وإسماعيل إلى الأزهر أو بيت الأمة، أو شادرمقام فى ساحة فسيحة لأستمع إلى خطباء الثورة ، وتبهرنى أصواتهم المجلجلة حتى أصبحت الخطابة من بين هواياتى :

وأحيانا كان الانجليز يسدون الطرق المؤدية للأزهر ليمنعوا الجماهير من حضور اجتماعات الثورة ، فكنت أسير مع أبى وأخوى فى طرق ملتوية وأزقة ضيقة حتى نصل الى الأزهر ونستمع إلى خطباء الثورة ، ونردد مع الجموع أناشيدها ، ومازلت أحفظ من بينها نشيدا مطلعه :

رسول السلم إلى مصر انثر فى الطرق لنا الزهر

وكان أفراد الأسرة يتخاطفون بلهفة شديدة ما يصل إلى أيدينا من منشورات الثورة . . وقد سرت فى بعض المظاهرات الصاخبة التى كانت تكتسح شوارع القاهرة ، وحين كان الانجليز يطلقون علينا النار كنت أجرى مع الجارين .

ومازلت أذكر إلى اليوم الجموع الغفيرة من جميع طبقات الأمة التى خرجت لتشيع جنازة ابن القباقيبى فى حى الركبية وكان قد قتل برصاص الإنجليز . .

فى تلك الأيام قرأت كل ما وقع فى يدى من كتابات عبدالله النديم ومصطفى كامل ، وكل ما نشر عن حادثة دنشواى . . وهكذا

التحقت بمدرسة الحقوق وقد تشبع وجدانى حتى الثمالة بحب مصر . . وعندما حدث الخلاف المعروف بين سعد وعدلى ، بين الوفد والأحرار الدستوريين . . اجتاحت بيتنا موجة عارمة من الكآبة وخيبة الأمل لفرقة الصف الوطنى . .

قبل أن ألتحق بمدرسة الحقوق كنت قد التقيت بمؤلفات المنفلوطى وجبران خليل جبران .. جرت دموعى مع « ماجدولين » ، وترنمت بشعر المهجر وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى . . وقادنى أخى ابراهيم فى دروب الأدب الانجليزى فقرأت كتبا لديكنز وروبرت لويس ستيفنسون وآديسون وغيرهم ...

أما فى الحقوق فقد كان على أن استكشف قارة جديدة مختلفة عن منطقة الأدب والفن والشعر والتاريخ والسياسة التى تعرفت عليها من قبل . . عرفت فى مدرسة الحقوق أن القانون رياضة ذهنية عليا ، تقارع فيها الحجة الحجة ، والإثبات عدم الإثبات .

ودخلت مع زملائى فى المدرسة فى سباق حامى الوطيس كانت حدته تزداد كلما اقتربنا من التخرج . . وانكببت على كتب القانون ألتهمها وثمة حلم يراود خيالى بالسفر لإتمام دراستى فى جامعات أوربا ، حيث البحث العلمى الحر وعباقرة فقهاء القانون وكاد الحلم يتحقق لولا هامش فى أحد الكتب عن الاتفاقية المصرية السودانية بشأن تسليم المجرمين ، أهملت ذلك الهامش وكان

موضع سؤال ، فجاء ترتيبي الرابع عشر فى الليسانس ، وسافر الأربعة الأوائل : حلمى بهجت بدوى ،و طه السيد نصر، وعبد الحكيم الرفاعي ، وطالب رابع يدعى زهدى .. فى بعثات إلى الخارج ، فى حين بقيت أنا أقضى فترة التمرين بنيابة الخليفة ثم أعمل محاميا بالاسكندرية ودمنهور فترة قصيرة ، عينت بعدها معاونا للادارة ..

ومن أبرز آثار دراستى للحقوق شغفى الواضح بدراسة الجريمة والمجرمين .. لعلها مخلفات رغبتى الدفينة فى دراسة الطب واستكشاف كنه تكوين الانسان الجسمي والعقلى . . وبلغ من هذا الشغف أننى انشغلت فترة عقب تخرجي بكتابة عدة أبحاث عن الأحداث المنحرفين مدعمة بالاحصاءات والمقارنات، وألقيت بعض المحاضرات العامة حول هذا الموضوع .

فى أول يناير سنة ١٩٢٧ تسلمت عملي الجديد معاونا للإدارة بمركز منفلوط حيث قضيت أهم سنتين فى حياتى على الإطلاق .

أتيح لى خلالهما أن أعرف بلادى وأهلها وأخالط الفلاحين عن قرب ، وأعيش فى الحقول بين نباتها وحقولها ، وآكل بصلها وسريسها ، بل لقد وجدت فيهما سعادتى عندما أصبح الحمار يزاملنى طول النهار .

أهمية هاتين السنتين ترجع إلى أربعة أشياء :

أولها : استقلالى فى المعيشة ، أدخل وأخرج كما أشاء ، ومع ذلك ففى كل مرة كنت أضع فيها المفتاح فى الباب إذا عدت متأخراً بالليل ، كنت أشعر بشىء من التهيب كأنى فى بيتنا القديم وأمى تنتظر .

والثانى : اتصالى المباشر بالطبيعة المصرية والحيوان والنبات : كنت قبل ذلك لا أفرق بين القمح والشعير ، ولا أعرف عن الريف سوى منظر الحقول كما يبدو من نافذة القطار . ولعلك تلحظ فى القصص التى كتبتها فى ذلك العهد مقدار التحامى بالنبات والحيوان .. : حقل القطن ، الجاموس المربوط على البرسيم الخ . .

ثالثاً : اتصالى المباشر بالفلاحين والتعرف على طباعهم وعاداتهم.

رابعاً : اتصالى المباشر أيضاً ، وبحرية ، بالجنس الآخر ، وقد عشت هناك تجربة حب خصبة عميقة ..

وسجلت تلك المرحلة على مستويين :

المستوى الوصفى فى « خليها على الله » ، وجعلت محورها تأمل أسباب تلك الهوة التى تفصل بين الحكومة والفلاحين .. وقد دهشت أشد الدهشة وأنا أكتبها بعد مرور ثلاثين سنة على التجربة ، ودون أن تكون لدى أى مخطوطات أو مذكرات ، ومع ذلك فقد وجدتنى لا أزال أعيش بكل وجدانى فى منفلوط سنة ١٩٢٧ و ١٩٢٨ :

أما المستوى الثانى فهو التصوير القصصى فى مجموعة « دماء وطين » ، وهى عبارة عن صعيديات تدور فى منفلوط ، ولها بقية فى مجموعة « أم العواجز » مثل قصتى « إزازة ريحة » و « حصير الجامع » .

* * *

قد يكون من المناسب أن أتوقف قليلا هنا لأروى قصتى مع القصة ، ومع الكتابة بشكل عام . .

بدأت أكتب فى سن مبكرة ، فى حوالى السادسة عشرة . .

ومعظم كتابات تلك المرحلة تجارب ساذجة لم أعن بجمعها أو الاحتفاظ بها .. ثم بدأت أكتب القصة القصيرة وأنا طالب بمدرسة الحقوق ، وبعد تخرجي .. وكنت متأثراً في كتابتها بالأدب الروسي أكثر من تأثري بالأدبين الانجليزي والفرنسي .. فقد وجدت في الأدب الروسي أن كل شخص تقريبا مشغول بقضية كبرى ، هي قضية خلاص الروح ..

يخيل إلى أن الأدب الصادق هو الأدب الذي ، وإن سجل وعبر وحلل وكتب بأسلوب واقعي ، لا يكتفي بذلك ، بل يرتفع إلى حد التبشير ، وهذا ما وجدته في الأدب الروسي فسحرني .

ويخيل إلى — مرة أخرى — أننا لا نستطيع أن نفهم روسيا إلا إذا فهمنا أنها تؤمن — لا أدري لماذا ؟ — بأن لها رسالة عالمية هي تخليص البشر كافة . وقد يكون في ذلك تفسير للدعوة العالمية للشيوعية ، كما قد يكون من الممتع حقاً مراقبة أثر التعايش السلمي الذي أصبحت تنادي به أخيرا على هذا الشعور الذاتي المتغلغل فيها .

نشرت أوائل قصصي في صحيفة « الفجر » التي كانت تصدرها المدرسة الحديثة برئاسة أحمد خيري سعيد ، ومن بينها قصة كتبتها وأنا واقع تحت تأثير الكاتب الأمريكي إدجار آلن بو(١) ، وأخرى أبطالها من القطط والكلاب اسمها « فلة . مشمش . لولو ».

---

(١) وهي قصة « السخرية او الرجل ذو الوجه الأسود » .

وكانت « قهوة ديمترى » هى أول قصة نشرتها فى جريدة « السياسة » ، وقد خرجت منها بدرس فنى انتفعت به طول حياتى ..

فقد وصفت فيها قهوة حقيقية موجودة فى مدينة « المحمودية »، وسجلت فيها الواقع كما هو ، وصورت العمدة بطربوشه المائل كما رأيته تماماً .. مجرد تصوير برىء لم أقصد من ورائه شيئاً .. فإذا بالعمدة يغضب على غضبا شديدا ويظننى أهزأ به .

حرصت فيما بعد على أن أتجنب مثل هذه المطابقة ، بعد أن فهمت أن الأدب الواقعى ليس هو التصوير الفعلى ، وأصبحت الشخصيات التى أرسمها ليست منقولة عن فرد واحد، بل عن مجموعة من الأفراد .

***

وأعود إلى منفلوط لأسجل الانقلاب الخطير الثانى فى حياتى . كنت راقداً بعد العشاء على السرير بعد نهار أنهك روحى وأنهك جسدى ، أقلب – ولا أقرأ – صحيفة يومية ، فإذا بنظرى يقع على إعلان لوزارة الخارجية بأنها ستعقد مسابقة تعين الفائزين فيها بوظائف أمناء المحفوظات فى القنصليات والمفوضيات .

إلقاء النظرة على الإعلان كان مجرد مصادفة .. ولكنها قلبت حياتى رأساً على عقب ، فقد تقدمت للمسابقة ، ونجحت وإن جاء اسمى فى ذيل قائمة الفائزين ، فصدر الأمر بتعيينى أميناً لمحفوظات

القنصلية المصرية فى جدة باعتباره أسوأ المناصب الشاغرة وقتذاك .
ما أبلغ هذا الانقلاب فى حياتى !

فى جدة فيما بين عامى ١٩٢٩ و ١٩٣٠ حدثت فى حياتى ثلاثة أحداث هامة :

رأيت المسلمين يأتون للحج من جميع أرجاء العالم فيكونون لوحة شاسعة كان لها أقوى الأثر فى نفسى .. وهناك درست المذهب الوهابى ومشكلات الحج والكورنتينات .. وكتبت حولها عدة مقالات فى مجلة « الرابطة الشرقية » ..

والتقيت فى جدة بالعقلية الغربية المنظمة .. ممثلة فى بعض رجال السلك الدبلوماسى . . من أهمهم « سان جون فيلبى » المستشرق البريطانى الذى قام بدور هام لحساب مخابرات بلاده ، واجتاز « الربع الخالى » وألف عنه كتابا ، وفان در مولن »

قنصل هولندا فى جدة ، وكان هو الآخر مستشرقا تخصص فى وضع الخرائط عن الجزيرة العربية ..

وفى تلك الآونة كان النشاط الدبلوماسى قليلا ، فرحت أقضى وقت فراغى فى مكتبة القنصلية حتى قرأتها عن آخرها .. وفيها اكتشفت تاريخ الجبرتى لأول مرة ، وفتنت به أشد الافتتان ، فلم أعرف كاتباً أو مؤرخاً استطاع أن يصور روح الشعب المصرى مثله ، ومنذ ذلك الحين وأنا شديد الاتصال الروحى بالجبرتى ، حتى لقد وقعت عدداً من مقالاتى الأولى باسمه : « عبد الرحمن ابن حسن » .. ومن أهمها ست مقالات عن « الدعابة فى المجتمع المصرى » كان هو مصدرى فيها ، ونشرتها فى جريدة « البلاغ » ، وأرجو أن تضاف إلى أحد مجلدات هذه الطبعة(١) ..

***

نقلت من جدة إلى استامبول سنة ١٩٣٠ ، وهناك أتيح لى أن أرقب من قرب تلك التجربة الخطيرة التى قام بها مصطفى كمال حين حول دولة شرقية إسلامية إلى دولة علمانية حديثة ينفصل فيها الدين عن الدولة ، وقد قرأت عن مصطفى كمال كثيرا والتقيت به أكثر من مرة وربما أتيح لى أن أكتب عنه يوما .

وفى استامبول ارتديت القبعة لأول مرة ، وتعلمت أن للقبعات علما وأصولا ، وأن ما يصلح للنهار أو الرحلات

(١) أضيفت بالفعل الى كتاب « فكرة فابتسامة » .

لا يصلح للمساء أو السهرة ، وأن لكل زى القبعة التى تتناسب معه واضطررت — بحكم الوظيفة — إلى شراء ستة أنواع مختلفة من القبعات بالإضافة إلى الطربوش .

وبذهابى إلى تركيا ، عدت إلى الأرض التى هاجر منها جدى وعثرت هناك على أقرباء لنا سكنت عندهم ، كما تعلمت التركية على كبر وأتقنتها . . فلم تكن اللغة التركية تستخدم فى بيتنا إلا للسباب فى لحظات الغضب . . كل ما تعلمته منها فى مصر لا يزيد على كلمات مثل : أدب سيس ، خرسيس ، سكتر بره . .

وحاولت الاتصال بأدباء تركيا ، وأسعدنى الحظ بمقابلة الشاعر عبد الحق حامد — شكسبير تركيا — فى أخريات أيامه والشاعر يحيى كمال ، ولكنى لم أعثر على الشاعر محمد عاكف وعلمت أنه فر من تركيا بعد الحركة الكمالية ، وأقام فى مصر زمنا .

وبعد أربع سنوات حافلة قضيتها فى تركيا نقلت إلى روما . فانتقلت من دكتاتورية أتاتورك إلى فاشستية موسولينى ، وكما تعلمت التركية تعلمت الإيطالية ، وأقبلت على الأدب الإيطالى أغترف منه . وقرأت مسرحية موسولينى الوحيدة « مائة يوم » وكتابا آخر ألفه بعنوان « اخى أرنالدو » وعلمت أنه كان يكتب

خطبه وبياناته الرسمية بنفسه ، فكانت قطعا من الأدب الحار الملتهب .

في تلك السنوات بدأ اتصالى المباشر بالحضارة الأوربية، وأخذت موقف التلميذ فى الموسيقى والتصوير والمعارض والمتاحف والمسارح ، وإذا كانت الثقافة فى روما وحركة التجديد والنشاط والابتكار لا تبلغ الذروة التى بلغتها فى باريس ، فقد كانت تناسب شخصا مبتدئا مثلى ، معالمها واضحة ملموسة ، وضجتها محدودة وحياة الليل فيها لم تكن صارخة كما يقال الآن ، فوجدت نفسى غارقا فى عصر النهضة الذى نقل أوربا كلها من الظلام إلى النور. كل بضاعتى فى الموسيقى والتصوير وبقية الفنون ، الفضل فيها أرده إلى السنوات الخمس التى قضيتها فى روما .

ورغم ذلك فقد كنت أشعر دائما أن فى داخلى شيئا صلبا لا يذوب بسهولة فى تيار حضارة الغرب ، وقد وضحت ذلك مرة فى مقال قارنت فيه بين الأثر الذى تتركه روما فى القادمين إليها من الشمال والنازحين إليها من الجنوب ، ولاحظت أن أهل الشمال ينبهرون بشمسها وحضارة عصر النهضة ، أما أنا فقد وصلتها وعندى قدر أكبر من اللازم من الشمس . . عندى حضارة .. إن لم تفق . . فهى تماثل حضارتها ، وعندى دين هو نظام متكامل فيه الغناء .

عشت فى روما مع أطماع موسولينى وبهلوانيته ، وزرت ألمانيا وسمعت هتلر ورأيته هو وأعوانه وهم يؤججون الحركة النازية بالشعارات الضخمة ومشية الأوزة .

وطوال تلك السنوات لم أنقطع عن التفكير فى بلادى وأهلها كنت دائم الحنين إلى تلك الجموع الغفيرة من الغلابة والمساكين الذين يعيشون برزق يوم بيوم . وحين عدت إلى مصر سنة ١٩٣٩ شعرت بجميع الأحاسيس التى عبرت عنها فى « قنديل أم هاشم » . إن بطل القصة شاب يريد أن يهز الشعب المصرى هزا عنيفا ويقول له :

« اصح . . تحرك ، فقد تحرك الجماد ! . . »

إنها قصة غريبة جدا كتبتها فى حجرة صغيرة كنت أستأجرها فى حى عابدين ، وعشت فيها لوثة عاطفية مثيرة عبرت عنها فى أناشيد « بينى وبينك » التى تجدها فى نهاية هذا الكتاب .

واسم إسماعيل . بطل « قنديل أم هاشم » أخذته من اسم صديق لى يدعى إسماعيل كامل ، كان آخر منصب شغله هو سفير مصر فى الهند ، فقد كان يمثل فى نظرى محاولة المزاوجة بين الشرق والغرب .

إن اسمى لايكاد يذكر إلا ويذكر معه « قنديل أم هاشم » كأنى لم أكتب غيرها . . وكنت أحيانا أضيق بذلك ولكن كثيرين

حدثونی عنها واعترفوا بعمق تأثيرها فى نفوسهم .. منهم أديب يمنى قال لى لقد أحسست أنك تصفنى حين أعود من القاهرة إلى اليمن . . وقال لى بائع كتب قديمة : مش القصة اللى فيها واد بياكل بفتيك فى أوربا وأهله بياكلوا طعمية فى مصر ! !

وحين أحاول البحث عن سبب قوة تأثير «قنديل أم هاشم» لا أجد ما أقوله سوى أنها خرجت من قلبى مباشرة كالرصاصة وربما لهذا السبب استقرت فى قلوب القراء بنفس الطريقة . .

* * *

تقلبت فى وظائف وزارة الخارجية ، وشغلت فترة وظيفة مدير مكتب الوزير ، وكانت الشفرة السرية للوزارة فى درج مكتبى ، وعملت مع النحاس والنقراشى وإبراهيم دسوقى أباظة وإبراهيم عبد الهادى وأحمد محمد خشبة . .

وفى سنة ١٩٤٢ وجدتنى أشغل وظيفة مرموقة وقد بلغت السابعة والثلاثين من عمرى ومازلت أعزب ، فتزوجت كريمة عبد اللطيف سعودى المحامى وعضو مجلس النواب عن الفيوم . . ولم تدم سعادتى معها أكثر من ثلاثة أشهر ، أصيبت بعدها بمرض خطير مؤلم سحب النور من عينيها ، وسرعان ما توفيت بعد أن أنجبت لى وحيدتى « نهى » . وتركت فى نفسى حسرة لا تنقضى .

وأثناء عملى بديوان وزارة الخارجية توثقت صلتى بالمحقق البحاثة الأستاذ محمود شاكر ، وقرأت معه عددا من أمهات كتب الأدب العربى القديم ودواوين شعره . . ومنذ ذلك الحين وأنا شديد الاهتمام باللغة العربية وأسرارها ، وفى إعتقادى أنها لغة عبقرية فى قدرتها على الاختصار الشديد مع الإيحاء القوى : .

ولست أخجل من القول بأنى منذ أمسكت بالقلم وأنا ممتلىء ثورة على الأساليب الزخرفية ، متحمس أشد التحمس لاصطناع أسلوب جديد أسميه الأسلوب العلمى الذى يهيم بالدقة والعمق والصدق . . ولقد أرضى أن تغفل جميع قصصى وكتاباتى ولكنى سأحزن أشد الحزن إذا لم يلتفت أحد إلى دعوتى للتجديد اللغوى فى محاضرتى « حاجتنا إلى أسلوب جديد » (١) وفى كثير من كتاباتى الأخرى . . والأسلوب الذى أطالب به هو أسلوب علمى يتميز بطلب الحتمية والدقة والوضوح ؛ لأن اللفظ عندى هو وعاء الفكر ، ولا وضوح لفكر إلا بهذا الأسلوب العلمى الدقيق . .

ومفهوم الحتمية . . حتمية اللفظ — هو أن يختار كل لفظ بدقة ليؤدى معنى معينا بحيث لا يمكنك أن تحذفه أو تضيف إليه لفظا آخر أو تكتب لفظا بدلا من آخر . . ولذلك قد أكتب

---

(١) ارجو ان تراجع نصها فى كتابى « خطوات فى النقد » .

الجملة الواحدة ثلاثين أو أربعين مرة حتى أصل إلى اللفظ المناسب الذى يتطلبه المعنى . .

وأهمية هذه الدعوة ترجع الى أنها تعود الذهن على عدم استعمال ألفاظ عائمة ، معانيها غير محددة ، وموضوعة فى مكانها بلا سبب واضح . . فمثل هذه الألفاظ لا تخل بالمعنى فقط ، بل تشل قدرة الذهن على التفكير الناضج المحدد . . ولذلك أضيق أشد الضيق باستهانة الكتاب باللفظ واستخدامهم كلمات بلا معنى . .

ولكنى أشترط مع ذلك كله ألا يبدو على الكلام أثر من عرق الكاتب وجهده ، بل لابد أن يختفى هذا كله حتى ليبدو الأسلوب شديد البساطة . . عليك إذا عزفت على العود ألا تسمع الناس خيطة الريشة ، وإذا كتبت ألا تسمع القارئ صرير القلم . .

* * *

ونقلت سنة ١٩٤٩ سكرتيرا أول للسفارة المصرية فى باريس إن روما بالنسبة لباريس أشبه بمسرح صغير بالقياس إلى محيط هائل بلاقرار . .

وكان أهم ما شعرت به فى باريس ، وأعظم ما عشته فيها هو ذلك الإحساس الغامر بطعم الحرية ، ولم أكن ذقتها بهذا الشكل لا فى القاهرة ولا فى جدة ولا فى تركيا ، ولا حتى فى

روما . . فى باريس كل إنسان حر . . والحكومة هناك لا تشعر بها إلا فى شخص رجل المرور فقط لا غير . .

وعلى درب الفن التقيت بزوجتى الثانية ، جان ميرى جيهو لفتت لوحاتها وتماثيلها نظرى ، ومن خلال المناقشات الفنية نولد الود ، فالحب الذى نضج على نار هادئة . . وتزوجنا سنة ١٩٥٤ ومن أجلها تركت السلك الدبلوماسى لأعمل فى وزارة التجارة والصناعة مديرا لمصلحة التجارة الداخلية .

وقبل ذلك عملت مستشارا لسفارتنا فى أنقرة سنة ١٩٥٢ وبقيت فيها عامين رقيت بعدهما وزيراً مفوضا لمصر فى ليبيا . .

وفى سنة ١٩٥٥ أنشئت مصلحة الفنون بوزارة الإرشاد القومى ، فكنت أول وآخر مدير لها ، إذ ألغيت سنة ١٩٥٨ فنقلت مستشارا لدار الكتب ، حيث أتيح لى أن أفرغ لقراءاتى وأبحاثى سبعة أشهر ، قدمت بعدها استقالتى من الحكومة .

وخلال السنوات الثلاث التى عملت فيها فى مصلحة الفنون عاصرت وشاركت ونفذت الخطوط العريضة للنهضة الفنية فى مصر ، ابتداء من إنشاء المعاهد الفنية ومسرح العرائس ، وأوركسترا القاهرة السيمفونى وكورال الأوبرا . . حتى إنشاء فرقة «ياليل ياعين» و«ندوة الفيلم المختار» التى تخرج فيها عدد غير قليل من شباب مخرجى السينما المصرية ونقادها . .

وفى إبرايل سنة ١٩٦٢ عينت رئيسا لتحرير مجلة «المجلة» وظللت أتولى مسئوليتها حتى ديسمبر ١٩٧٠ وطول تلك السنوات حاولت أن أحافظ للمجلة على شعارها الذى اتخذته لنفسها منذ انشائها ، وهو « سجل الثقافة الرفيعة » ، فسعيت ما وسعنى السعي لوصلها بالجامعات المصرية بنشر أبحاث أساتذتها النابهين كما حاولت ربطها قدر الامكان بمشاكل المجتمع الواقعية ، وما من بحث قيم بعيد عن النغمة الخطابية والدعائية والتبسيط إلا نشرته فيها ، بل وسعيت إليه وطلبته .

لم أتصور وظيفة رئيس التحرير على أن الدولة سلمته مجلة ليتبحبح فيها على هواه ، ويطلع على القراء كل عدد بمقال له أو عنه ،. بل إن واجبه يفرض عليه أن ينشر فى المجلة أحسن ما يصله ومن بين ما يصله مقالته هو ، فإذا وجد فيما يصله ما هو أفضل منها لم ينشرها :

يبدو أن زحمة العيش وتشابك المصالح كانا يحولان بين العناصر

العلمية والأدبية الممتازة وبين التنبه إلى دورها فى احتضان « المجلة » وتبنى رسالتها . وما لم تشعر هذه العناصر بمسئوليتها عن أمثال هذه المجلات الثقافية الجادة ، فسنظل ننضح فى بئر غير فياضة .

ورغم ذلك فقد نجحت فى تحويل مقر «المجلة» إلى ندوة متصلة لا تكاد تنفض ، يشارك فيها عدد كبير من شباب الأدباء والباحثين احتضنت « المجلة » إنتاجهم ، وكان لها شرف تقديم الكثيرين منهم إلى القراء لأول مرة .

هل يهمك أن تعلم بعد ذلك أنى نلت جائزة الدولة التقديرية فى الآداب سنة ١٩٦٩ ، وأنى أتشرف بعضوية المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ؟! .

* * *

وأعود لوصل ما انقطع من الحديث عن كتاباتى . . لقد عالجت معظم فنون القول من قصة قصيرة ورواية ونقد ودراسة أدبية وسيرة أدبية ومقال أدبى ، وترجمت عددا من القصص والمسرحيات ولكن تظل القصة القصيرة هى هواى الأول ، لأن الحديث فيها عندى يقوم على تجارب ذاتية ، أو مشاهدة مباشرة ، وعنصر الخيال فيها قليل جدا ، دوره يكاد يكون قاصرا على ربط الأحداث ولا يتسرب إلى اللب أبدا . .

وأهم الأفكار التي ألححت عليها في قصصي هي :

أولا : الإعلاء من شأن الإرادة وجعلها أساسا لجميع الفضائل فالعالم في نظري معركة كبيرة ، والسلاح الأول الذي يستخدمه الإنسان في خوضها هو الإرادة . . وما أكثر ما وصفت شخصية رجل طيب ولكنه ضعيف ، فتكون النتيجة الحتمية أنه يخور جزورا . . وهذا واضح في قصص مثل « نهاية الشيخ مصطفى » (نشرتها في جريدة « السياسة » سنة ١٩٢٧) « وأم العواجز » « والسلحفاة تطير (١) » . .

ثانيا : الشغف بالدراسات والتحليلات النفسية وكانت لي قراءات مستفيضة في علم النفس وتراجم كبار الفنانين المصابين

(١) القصة الثانية في هذا الكتاب .

بتمزقات روحية ونفسية وتأثرت بآراء فرويد وآدلر . . ومن القصص التى يتضح فيها هذا الشغف « الفراش الشاغر » و« سوسو » (مجموعة « عنتر وجولييت ») « ومرآة بغير زجاج » (مجموعة « أم العواجز ») وأشير فيها إلى أن كلا منا خزانة مغلقة لا يعرفها أحد ، وأن سر الحياة فى المقدرة على الجذب ، وفيها تعبير غريب جدا فى كلمات قليلة « وعجز يدى عن الامتلاك » ، إنه أصدق وصف لأشخاص تضيع منهم محافظهم وأموالهم . . وزوجاتهم . لافتقارهم للقدرة الإيجابية على الجذب .

ثالثا : التنبه لمفارقات الحياة ، وأول هذه المفارقات جبروت الإنسان وضعفه فى وقت واحد . ومن هنا تنشأ نغمة السخرية التى تسرى فى كثير من قصصى .

رابعا : الاهتمام بوصف الحيوان ، ومن أمثلة ذلك قصة « فلة . مشمش . لولو » ،« عنتر وجولييت » ، ووصف الحمار فى « خليها على الله » ، والجمل والبقرة والماعز فى « صح النوم » .

خامسا : فى المرحلة الأولى انشغلت بالجنس ، فصورته الغريزة الجنسية كقوة واعية لها إرادتها المستقلة التى تنفذها من خلال البشر غير مهتمة بقوانينهم أو أعرافهم . وفى قصة « احتجاج»

(مجموعة «أم العواجز») صورت سيطرة هذه الغريزة على بيت ، لذلك تعمدت أن أكثر فيها من المصطلحات الفسيولوجية : قىء الحامل ليلة الدخلة ، غسيل الفوط الصغيرة المبقعة ، رائحة العرق .

ومنذ اشتغلت بكتابة القصة القصيرة ، وأنا أحاول دائما العثور على أشكال فنية جديدة . ولعلى فى قصة « البوسطجى » (مجموعة « دماء وطين ») كنت أول من استخدم « الفلاش باك » أى البدء بالأحداث المتأخرة فى القصة . لقد كتبت هذه القصة فى استامبول ومازلت أذكر تلك الليلة التى كتبت فيها وصف ليل الصعيد ، وكيف شعرت برجفة شديدة ، وأنا أكتبه . . ولقد سرنى أن سمعت من بعض من قرءوا القصة أنهم أحسوا عند هذا الجزء بنفس الرجفة (١) . .

وفى قصة « السلحفاة تطير » (فى هذا الكتاب) استخدمت الشكل الدائرى ، فانتهت القصة حيث بدأت .

وقد تكون رواية « صح النوم » أحب أعمالى القصصية إلى نفسى لأنها تطبيق صارم للمبدأ الذى أنادى به فى ضرورة التزام

---

(١) « ليل فى ظلمة العمى .. تلفح به الكون مرغما ، هبط على الفضاء حملا ثقيلا ، أحاط بالأرض كالقيد ، غطى الحقول كالكفن ، ولف القرى كالضماد . وانحدر — ولاحد لاتساعه — الى الشقوق فاحتواها . ثم تلفت يبحث عن مداخل النفوس التى يعلم أنها تستقبله وتتشربه ، فاحتلها يتمطى فيها . هو الآن فى كل زورة لكوم النحل يتسلل كاللص الى قلب عباس ، على غفلة منه .. »

الدقة والعمق فى أسلوب الكتابة . فليس فيها لفظ واحد لم يكن موضع جس ووزن ، وفيها صفحات كاملة لا يتكرر فيها لفظ واحد . والمسألة ليست صنعة بقدرما هى ثراء فى المعانى والأحاسيس التى تتطلب ألفاظا لا تتكرر . ومن الأجزاء التى أعتقد أنه حالفنى التوفيق فيها منولوج التربى الذى يناجى الطبيعة ، فالإنسان لا يلتحم مع الطبيعة التحاما كاملا إلا عند الموت . والتربى فى الرواية هو صاحب الخان الذى لا يستطيع أن يرى الناس إلا على حقيقتهم وهم سكارى ، فلما أغلقوا له الخان لم يجد أمامه سوى الموتى ليرى فيهم الإنسان على حقيقته .

وإلى جوار القصة ، والمقال الأدبى . لا الصحفى . أسهمت بقدر لا بأس به فى النقد والدراسات الأدبية ، فكتبت تاريخ «فجر القصة المصرية » بأسلوب درامى يجمع بين الحقائق العلمية والتشويق القصصى ، واهتممت فيه بإبراز المفارقات التى تثير السخرية كقولى عن الدكتور محمد حسين هيكل حينما نشر روايته : « زينب » بتوقيع « مصرى فلاح » : إنى لم أر رجلا مثله يتنكر حين يتشرف .

ويدل كتابى « خطوات فى النقد » على اتصالى منذ وقت مبكر بالحركة الأدبية فى مصر رغم بعدى المادى عنها ، ففيه مقالات عن ديوان رامى « ومصرع كليوباترا » لشوقى « وأهل الكهف » لتوفيق الحكيم .

وأعرف أنى منهم بأنى ناقد تأثرى ، ولكنى فى مقالى عن « مصرع كليوباترا » مثلا تحدثت عن أدق تفصيلات المسرحية فلم أترك حتى الشخصيات الثانوية . وفى مقالى عن «عودة الروح» لتوفيق الحكيم لعلى كنت أول كاتب مصرى يثير قضية الفن للفن والفن للحياة ، وقد أخذت على الرواية أن الذى يدافع عن مصر فيها رجل فرنسى !

وفى مقالى عن « المستحيل » لمصطفى محمود تحدثت عن كيفية نشوء الفكرة لدى الكاتب ، ثم كيف يخرجها على الورق ، كما قدمت تفسيرا اجتماعيا لشخصية كشكش بك يتضح منه مدى حبى لمصر وإشفاقى عليها .

وأزعم أنى أسهمت فى تطوير الكتابة الفكاهية ، خير ما يمثلها كتابى « فكرة فابتسامة » فالفكاهة فيه تقوم على المفارقات العقلية ودقة الملاحظة لسلوك الناس ، ومن مقالاته القريبة إلى قلبى « خرج ولم يعد » و« الحكاية وما فيها » و « سبعة فى قارب » الذى قدمت فيه تفسيرا لكل النوازع الفنية .

ومما أعتزبه صداقاتى العديدة بالأدباء الشبان واحتفائى بكتاباتهم على اختلاف مذاهبها ، فالحنو على الجيل الصاعد ليس مسألة عاطفية فى نظرى ، فالفنان الصادق هو الذى يشعر أن المعبد أو الهيكل الذى يعيش فيه يجب أن يستمر وأن يسلمه جيل إلى

آخر . هناك بالطبع لذة الأب وهو يرى ابنه يتقدم ، ولكن اللذة الأساسية هي المتصلة بوجود الفن واستمراره .

لعل ذلك يفسر كثرة المقدمات التي كتبتها لقصص الأدباء الشبان ، وقد سمعت من يقول إنني جاملتهم ، والواقع أنني لم أكذب في أي مقدمة كتبتها بل قلت الحقيقة بأسلوب رقيق ، ولكني أغضب حينما يوصف نقدي بأنه « دبلوماسي » ، لأن هذا معناه أنه نقد منافق ، وأنا سعيد بتقديم عدد كبير من الأدباء الشبان وبصفة خاصة محمد سالم والشبان الستة الذين اشتركوا في إصدار مجموعة « عيش وملح » ولذلك حرصت على ضم هذه المقدمات إلى هذه الطبعة من مؤلفاتي (١).

وكانت لي مشاركة لابأس بها في الترجمة ، فترجمة مسرحيتي « الطائر الأزرق » لميترلينك و « دكتوركنوك » لجول رومان وروايات : «أنتوني كروجر » لتوماس مان ، « ولاعب الشطرنج » لستيفان زفايج ، « والبلطة » لميخائيل سادوفيانو ، وسيرة اسكندر دوماس التي كتبتها إديث سوندرز بعنوان « الأب الضليل » بالإضافة إلى كتاب « القاهرة » لدزموند ستيوارت ، كما قمت بمراجعة ترجمة عدد من المسرحيات العالمية التي أصدرتها وزارة الثقافة .

---

(١) ستضاف الى كتاب « انشودة للبساطة » .

أما الظاهرة الغريبة التي أحار كثيرا في تحليلها وأنا أتأمل حياتي وإنتاجي ، فهي أني وإن كنت من أصل تركي قريب ، فإني أحس بأني شديد الاندماج بتربة مصر وأهلها ، وفي بعض الأحيان يرجني هذا الشعور رجا عنيفا .. ومعرفتي باللغة العامية المصرية وتعبيراتها تفوق ما حصلته منها مباشرة . قد يكون ذلك راجعا إلى الفطرة والحدس والإحساس غير الواعي ، ولعل هذا الحب هو الذي يميل بي إلى استخدام بعض الكلمات العامية في كتاباتي رغم أني من المهووسين بالفصحى .

وأثناء إقامتي الطويلة في أوربا كان أكثر ما أحن إليه في مصر هو أحياؤها الشعبية القديمة التي أسمع في أزقتها كلمات مثل « اجرنها » و « يادلعدي » ، وأعايش تلك الروح الشعبية الحلوة الصابرة التي حاولت تصويرها في « قنديل أم هاشم » . .

ياأخي . .

ها أنذا قد فتحت لك قلبي ، وقدمت لك في مستهل هذه الطبعة الجديدة الكاملة من مؤلفاتي ما قدرني الله عليه من سيرتي وآرائي ، أيا كان حكمك عليه فسأتشفع عندك بمثل فرنسي معروف يقول :

« إن أجمل امرأة لا تستطيع أن تمنح إلا ما عندها — لا أكثر . . »

يحيى حقي

(مايو ١٩٧٤)

قنديل أم هاشم

١

كان (١) جدى الشيخ رجب عبد الله إذا قدم القاهرة وهو صبى مع رجال الأسرة ونسائها للتبرك بزيارة أهل البيت ، دفعه أبوه إذا أشرفوا على مدخل مسجد السيدة زينب ، – وغريزة التقليد تغنى عن الدفع – فيهوى معهم على عتبته الرخامية يرشقها بقبلاته ، وأقدام الداخلين والخارجين تكاد تصدم رأسه . وإذا شاهد فعلتهم أحد رجال الدين المتعالمين أشاح بوجهه ناقماً على الزمن ، مستعيذاً بالله من البدع والشرك والجهالة ، أما أغلبية

(١) كتبت « قنديل أم هاشم » فيما بين عامى ١٩٣٩ و ١٩٤٠ ، ونشرت لأول مرة فى سلسلة « اقرأ » ، العدد ١٨ ، يونيو ١٩٤٤ ، وأضيفت إليها فى الطبعة الحالية سيرة الكاتب الذاتية التى تنشر هنا لأول مرة .

الشعب فتبسم لسذاجة هؤلاء القرويين — ورائحة اللبن والطين والحلبة تفوح من ثيابهم — وتفهم ما فى قلوبهم من حرارة الشوق والتبجيل ، لا يجدون وسيلة للتعبير عن عواطفهم إلا ما يفعلونه : والأعمال بالنيات . وهاجر جدى — وهو شاب — إلى القاهرة سعياً للرزق . فلا عجب أن اختار لإقامته أقرب المساكن لجامعه المحبب . وهكذا استقر بمنزل للأوقاف قديم ، يواجه ميضأة المسجد الخلفية ، فى الحارة التى كانت تسمى (حارة الميضة) . « كانت » لأن معول مصلحة التنظيم الهدام أتى عليها فيما أتى عليه من معالم القاهرة . طاش المعول وسلمت للميدان روحه ، إنما يوفق فى المحو والإفناء حين تكون ضحاياه من حجارة وطوب ! ثم فتح جدى متجرا للغلال فى الميدان أيضا . وهكذا عاشت الأسرة فى ركاب « الست » وفى حماها : أعياد « الست » أعيادنا ، ومواسمها مواسمنا ، ومؤذن المسجد ساعتنا .

اتسع المتجر وبورك لجدى فيه — وهذا من كرامات أم هاشم — فما كاد يرى ابنه الأكبر يتم دراسته فى الكتاب حتى جذبه إلى تجارته ليستعين به ، وأما ابنه الثانى فقد دخل الأزهر ، واضطرب فيه سنوات وأخفق ، ثم عاد لبلدتنا ليكون فقيهها ومأذونها. بقى الابن الأصغر — عمى إسماعيل آخر العنقود ، يهيئه القدر واتساع رزق أبيه لمستقبل أبهى وأعطر . لعله خشى فى مبدأ الأمر ، عندما

أجبره أبوه على حفظ القرآن أن يدفع به إلى الأزهر ، لأنه يرى صبية الميدان تلاحق الفتية المعممين بهذا الهتاف البذىء :

ـ شد العمة شد ، تحت العمة قرد . . . . .

ولكن الشيخ رجب سلمه ، بقلب مفعم بالآمال ، إلى المدارس الأميرية ، وعندئذ أعانته تربيته الدينية وأصله القروى فسرعان ما امتاز بالأدب والاتزان وتوقير معلميه ، مع حشمة وكبير صبر . إن حرم التأنق لم تفته النظافة . وهو فوق ذلك أكثر رجولة وأقوم لساناً وأفصح نطقاً من زملائه (المدلعين) أولاد الأفندية المبتلين بالعجمة وعجز البيان ، فما لبث أن بذ الأقران وتلألأت على سيمائه نجابة لا تخطئها العين ، فتعلقت به آمال أسرته.

أصبح ، وهو لم يزل صبياً ، لا ينادى إلا بـ (سى إسماعيل) أو إسماعيل أفندى ، ولا يعامل إلا معاملة الرجال . له أطيب ما فى الطعام والفاكهة .

إذا جلس للمذاكرة خفت صوت الأب ، وهو يتلو أوراده إلى همس يكاد يكون ذوب حنان مرتعش ، ومشت الأم على أطراف أصابعها ، حتى فاطمة النبوية ـ بنت عمه ، اليتيمة أبا وأما ـ تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها وتسكن أمامه فى جلستها صامتة كأنها أمة وهو سيدها . تعودت أن تسهر معه كأن الدرس درسها ، تتطلع إليه بعينيها المريضتين المحمرتى الأجفان ، وأصابعها

تعمل فى حركة متصلة لا تنقطع فى بعض أشغال (التريكو) من ذا الذى يقول لإسماعيل : تنبه إلى هاتين اليدين كيف دبت فيهما خلسة حياة غريبة وحساسية يقظة ، ولمس متعرف ؟ ألا تفهم ألا تفطن إلى أن دليل اقتراب عاهة العمى فى السليم هو أن تبدأ يده فى الإبصار ؟

— قومى نامى يافاطمة .

— لسه بدرى ما جاليش نوم .

بين حين وآخر تحيل دمعة مترقرقة شخصه إلى شبح مبهم فتمسحها بطرف كمها وتعود إلى تطلعها . الحكمة عندها تتمثل فى كلامه إذا نطق .

يالله ! كيف تحوى الكتب كل هذه الأسرار والألغاز ؟ وكيف يقوى اللسان على الرطانة بلغة الأعاجم ؟ وكلما كبر فى نظرها انكمشت أمامه وتضاءلت . قد يحلق بصره بضفيرتيها فيتريث ويبتسم. هؤلاء الفتيات! لو يعلمن كم هى فارغة رؤوسهن!! إذا أوى إلى فراشه فعندئذ ، وعندئذ حسب ، تشعر الأسرة أن يومها قد انقضى ، وتبدأ تفكر فيما يلزمه فى الغد . كل حياتها وحركاتها وقف على توفير راحته . جيل يفنى نفسه لينشأ فرد واحد من ذريته . محبة وصلت من قوتها إلى عنفوان الغريزة الحيوانية. الدجاجة القلقة ذات النظرة المتجسسة الحذرة ترقد على بيضها

مشلولة الحركة ذليلة العين ، كأنها راهبة تصلى . . . هل هى هبات من فيض كرم ؟ أم جزية جبار مستبد ، إرادته حديد ، له فى كل عنق طوق ، وفى كل ساق قيد ؟ تعلق هذه الأسرة بولدها تعلق مسلوب الحرية والإرادة ! فأين بربك جاله ؟ جواب هذا السؤال عند قلبى . فما من مرة تمثلت فيها هذه الأيام البعيدة إلا وجدته يخفق بذكراها ، ويبدو لى وجه جدى الشيخ رجب وحواليه هالة من وضاءة ونور . أما جدتى — الست عديلة ، بسذاجتها وطيبتها ، فمن السخف أن يقال إنها من البشر ، وإلا فكيف إذا تكون الملائكة ! ما أبشع الدنيا وأبغضها لو خلت من مثل تسليمها وإيمانها .

٢

سنة بعد سنة وإسماعيل يفوز بالأولوية فإذا أعلنت النتيجة دارت أكواب الشربات على الجيران ، بل ربما شاركتهم المارة أيضا ، وزغردت (ما شاالله) بائعة الطعمية والبصارة وفاز الأسطى حسن — الحلاق ودكتور الحى — بحلوانه المعلوم وأطلقت الست عديلة بخورها وقامت بوفاء نذرها لأم هاشم . فهذه الأرغفة تعد وتملأ بالفول النابت وتخرج بها أم محمد تحملها فى مقطف على رأسها : ما تهل فى الميدان حتى تختطف الأرغفة ، ويختفى المقطف وتطير ملاءتها ، وترجع خجلة تتعثر فى أذيالها غاضبة ضاحكة من جشع شحاذى السيدة وتصبير حادثتها فكاهة الأسرة بضعة أيام يتندرون بها .

وكذلك نشأ إسماعيل فى حراسة الله ثم أم هاشم . حياته لا تخرج عن الحى والميدان ، أقصى نزهته أن يخرج إلى المنيل ليسير بجانب النهر أو يقف على الكوبرى . إذا أقبل المساء وزالت حدة الشمس وانقلبت الخطوط والانعكاسات إلى انحناءات وأوهام ، أفاق الميدان إلى نفسه وتخلص من الزوار والغرباء إذا أصخت السمع وكنت نقى الضمير فطنت إلى تنفس خفى عميق يجوب الميدان لعله سيدى العتريس بواب الست — أليس اسمه من أسماء الخدم ؟ — لعله فى مقصورته ينفض يديه وثيابه من عمل النهار ، ويجلس يتنفس الصعداء . فلو قيض لك أن تسمع هذا الشهيق والزفير فانظر عندئذ إلى القبة . لألاء من نور يطوف بها ، يضعف ويقوى كومضات مصباح يلاعبه الهواء . هذا هو قنديل أم هاشم المعلق فوق المقام . هيهات للجدران أن تحجب أضواءه . يمتلىء الميدان من جديد شيئاً فشيئاً . أشباح صفر الوجوه منهوكة القوى ، ذابلة الأعين ، يلبس كل منهم ما قدر عليه ، أو إن شئت : فما وقعت عليه يده من شىء فهو لابسه . نداءات الباعة كلها نغم حزين .

— حراتى يا فول .

— حلى وع النبى صلى .

— لوبيه يافجل لوبيه .

— المسواك سنة عن رسول الله .

ما هذا الظلم الخفى الذى يشكون منه ؟ وما هذا العبء الذى يجثم على الصدور جميعها ؟ ومع ذلك فعلى الوجوه كلها نوع من الرضا والقناعة.ما أسهل ما ينسون !تتناول أيد كثيرة قروشا وملاليم قليلة ليس هنا قانون ومعيار وسعر ، بل عرف وخاطر وفصال وزيادة فى الكيل أو طبة فى الميزان . . وقد يكون الكيل مدلسا والميزان مغشوشاً ، كله بالبركة ، صفوف تستند إلى جدار الجامع جالسة على الأرض ، وبعضهم يتوسد الرصيف . خليط من رجال ونساء وأطفال ،لا تدرى من أين جاءوا ولا كيف سيختفون، ثمار سقطت من شجرة الحياة فتعفنت فى كنفها . هنا مدرسة الشحاذين . حامل كيس اللقم يثقل الحمل ظهرة ينادى :

ـــ لقمة واحدة لله يافاعلين الثواب ، جاعان :

والشابة التى تنبت فجأة وسط الحارة عارية أو شبه عارية :

ـــ ياللى تكسى الوليه يامسلم ، ربنا ما يفضح لك وليه !

صوتها الصارخ يجذب الوجوه للنوافذ ، وعيناها الساحرتان تستهويان المطلات ، فتمطر عليها أكوام من الخرق ورث الثياب فى لحظة واحدة تذوب وتختفى ،فلا تدرى أطارت ، أم ابتلعتها الأرض فغارت .

وهذا بائع الدقة الأعمى الذى لا يبيعك إلا إذا بدأته السلام وأقرأك وراءه الصيغة الشرعية للبيع والشراء .

ينقضى النهار فيودع كرش الطرشجى بقية براميله ، وتترك أقدام الخراط عملها اليومى وأدواتها ، لتعود بصاحبها إلى الدار . لا يزال الترام هنا وحشاً مفترساً له فى كل يوم ضحية غريرة . يتقدم المساء ينعشه نسيم ذو دلال . تسمع من القهاوى ضحكات غضة وأخرى غليظة « حشاشى » . وإذا دلفت من الميدان إلى مدخل شارع مراسينه (١) سمعت ضجيج السكارى فى خمارة أنسطاسى التى يلقبها أهل الحى بفكاهتهم خمارة « آنست » . يخرج منها سكير هائج يتطوح ويتعرض للمارة :

ــ وورونى أجعص فتوة .

ــ جتك طوه يابعيد .

ــ سيبوه فى حاله دا غلبان .

ــ ربنا يتوب عليه .

أشباح الميدان الحزينة المتعبة يحركها الآن نوع من البهجة والمرح ليس فى الدنيا هم . والمستغيل بيد الله تتقارب الوجوه بهدوء ويتمنى الوجيع شكايته . ويبذر الرجل آخر نقوده فى الجوزة أو الكتشينة وليكن ما يكون : تعلو أصوات اصطدام كفوف المراهنين وتختفى ضربات اليد ، وتطفأ الشموع داخل المشنات ، عندئذ تنتهى جولة إسماعيل فى الميدان . هو خبير بكل ركن وشبر وحجر ،

(١) هو الشارع المتجه من ميدان السيدة زينب إلى القلعة .

لايفاجئه نداء بائع ، ولا ينبهم عليه مكانه . تلفه الجموع فيلتف معها كقطرة المطر يلقمها المحيط . صور متكررة متشابهة اعتادها فلا تجد في روحه أقل مجاوبة لايتطلع ولا يمل . لايعرف الرضا ولا الغضب إنه ليس منفصلا عن الجمع حتى تتبينه عينه . من يقول له إن كل ما يسمعه ولا يفطن له من الأصوات . وكل ما تقع عليه عينه ولا يراه من الأشباح ، لها كلها مقدرة عجيبة على التسلل إلى القلب ، والنفوذ إليه خفية ، والاستقرار فيه ، والرسوب في أعماقه ، فتصبح في كل يوم قوامه . أما الآن فلا تمتاز نظرته بأية حياة . . . نظرة سليمة ، كل عملها أن تبصر .

٣

اقتربت المراهقة وأخذ جسده يفور ، وكأنه مرغم ، فهو فريسة ممزقة بين قوى دافعة وأخرى جاذبة . يهرب من الناس ويكاد يجن لوحدته بدأ يشعر بلذة غريبة فى أن يندس بين المترددات على المسجد ، ولا سيما يوم الزيارة . فى هذا الزحام كان معنى اللباس عنده أنه فواصل بين الأجسام العارية ، يحس بها من صلمة هينة أو احتكاك وامض . فى وسط هذه الأجسام كان يشعر بلذة المستحم فى تيار جار لايبالى نقاء الماء . . روائح العرق

والعطر لاتكربه ، بل يتشممها بخيشوم الكلاب لا يخلو يوم الزيارة من بعض المومسات - فسيدى العتريس مأمور أن لايصد أحداً عن الساحة - يفدن لتقديم شمعة للمقام أو للوفاء بنذر ، عسى الله أن يتوب عليهن ، ويمحو ما على الجبين من مقدر مسطور . كان يراهن من قبل فلا يفطن إليهن ، أما الآن فهو يتبعهن وتعلق نظرته بهن وتريث واختص بانتباهه فتاة تأتى كل يوم زيارة . سمراء جعدة الشعر ، رقيقة الشفتين . هذه هى نعيمة ، تمتاز عن زميلاتها بصمتها وقوامها الأهيف : كلهن يمشي مشية المتخاذل المنحل غير مكترث . أما هى ، فكأنما تسير إلى غرض ، مالكة كيانها وروحها . ذراعاها ممدودتان إلى جانبها ، يواجهك باطن كوعها ولو دققت النظر لما وجدت من يومس إلا ذراعين مكسورتين من أثر السقوط ، وإن كانت الثنية عندها سر الخلاعة !

يبتسم إسماعيل عندما يرى الشيخ درديرى خادم المقام - وسطهن كالديك بين الدجاج . يعرفهن واحدة واحدة ويسأل عن الغائبات ، يأخذ من هذه شمعتها ، ويوسع لأخرى طريق صندوق النذور . يتبدل رضاه فجأة ، فيزجرهن ويدفعهن دفعاً إلى الخارج . تأتى إليه أيضا نسوة ورجال يسألونه شيئاً من زيت قنديل أم هاشم ، لعلاج عيونهم أو عيون أعزائهم . يشفي بالزيت المبارك من كانت بصيرته وضاءة بالإيمان . فلا بصر مع فقد البصيرة . ومن لم يشف فليس لهوان الزيت ، بل لأن أم هاشم لم يسعها بعد أن تشمله برضاها .

لعله عقاب آثامه ، ولعله هو لم يتطهر بعد من الرجس والنجاسة ، فيصبر وينتظر ويتردد على المقام . فإن كان الصبر أساس مجاهدة الدنيا ، فإنه أيضا الوسيلة الوحيدة للآخرة .

في هذا الزيت مورد رزق متسع للشيخ درديري ، ومع ذلك لاتظهر عليه آثار النعمة : فجلبابه القذر هو هو ، وعمامته الغبراء هي هي . وماذا يفعل بنقوده ! هل يكنزها تحت بلاطة ؟ يتهمه زملاؤه أنه يحرقها في الحشيش ، بدليل سعاله الذي لاينقطع وبدليل ما في طبعه من ميل (للقفش) والتنكيت . والحقيقة أنه مزواج لايعمر الدائم إلا ويبنى ببكر جديدة . عرفه إسماعيل من تردده على المقام واعتاد أن يمر عليه في أغلب الليالي بعد صلاة العشاء ليتمتع بحديثه . ومال الرجل للفتى واختصه بحنانه ، هذا الحنان هو الذي حمله ذات ليلة على الإفضاء إليه بسر لم يفض به إلى أحد غيره :

— تعرف ياسي إسماعيل ليلة الحضرة يجيء سيدنا الحسين والإمام الشافعي والإمام الليث : يحفون بالسيدة فاطمة النبوية والسيدة عائشة . والسيدة سكينة . وفي كوكبة من الخيل ، ترفرف عليهم أعلام خضر ، ويفوح من أردانهم المسك والورد يأخذون أمكنتهم عن يمين الست وعن يسارها ، وتنعقد محكمتهم وينظرون في ظلامات الناس ، لو شاءوا لرفعوا المظالم جميعها ولكن الأوان لم يئن بعد . فما من مظلوم إلا وهو ظالم أيضا ، فكيف الاقتصاص له ؟

فى تلك الليلة ، هذا القنديل الصغير الذى تراه فوق المقام ، يكاد لايشع له ضوء ، ينبعث منه عندئذ لألاء يخطف الأبصار إننى ساعتها لاأطيق أن أرفع عينى إليه . زيته فى تلك الليلة فيه سر الشفاء — فمن أجل ذلك لا أعطيه إلا لمن أعلم أنه يستحقه من المنكسرين .

كان إسماعيل غائب الذهن ، يفكر فى الفتاة السمراء التى ترم شفتيها . وانتبه إلى الشيخ درديرى وهو يشير بإصبعه إلى القنديل : وسنان كالعين المطمئنة رأت ، وأدركت ، واستقرت. يصفو ضوؤه الخافت على المقام ، كإشعاع وجه وسيم من أم تلقم رضيعها ثديها فينام فى أحضانها . ومضات الذبالة خفقات قلبها حناناً ، أو وقفات تسبيحها همساً . يطفو فوق المقام كالحارس مبتعداً تبجيلا . أما السلسلة فوهم وتعلة . . . كل نور يفيد اصطداما بين ظلام يجثم وضوء يدافع ، إلا هذا القنديل . فإنه يضىء بغير صراع ! لاشرق هنا ولا غرب ما النهار هنا ولا الليل، لا أمس ولا غد.

وانتفض إسماعيل ، لايدرى ما هذا الذى مس قلبه ! .

٤

ووافقت المراهقة سنة البكالوريا . وخرج إسماعيل من الامتحان وقلبه واجف مفعم بالشكوك . وأعلنت النتيجة فإذا به يفوز ولكن فى ذيل الناجحين .

لقد كان أمله ورجاء الأسرة كلها أن يدخل مدرسة الطب فإذا بها تصده عن أبوابها . واقترب العام الجديد ولم يستقر على قرار . ليس أمامه إلا أن يدخل مدرسة المعلمين إن شاء أو أن يدرس للبكالوريا من جديد ، ويضيع سنة من عمره ، وكلا الأمرين بغيض إلى نفسه . لم يكن الشيخ رجب بأقل من ابنه قلقاً وحيرة

ولكم توقع بعض معارفه أن يكتفى بتعليم ابنه إلى الحد الذى يلغه ويوظفه بالبكالوريا ، إن لم يكن للمساعدة ، فللتخفيف عنه . آه لو علموا كيف عقد الشيخ رجب نيته على أن يدفع بابنه إلى الصفوف الأولى ! ! يذهب هنا وهناك يسأل عن حل . . لاأدرى من الذى قال له :

— لماذا لاترسل ابنك إلى أوربا ؟

بات الشيخ رجب ليلته يتقلب على جنبيه .

علم أن هذا الحل سيكلفه من عشرة إلى خمسة عشر جنيها فى الشهر ، غير ما يلزم لابنه فى أول الأمر من نفقات الطريق وثياب تقيه برد الشمال ؟ أيفارق ابنه ؟ وهل ترضى أمه ؟ أم سيقف حنانها فى سبيل مستقبل إسماعيل ؟ وهل يقوى على دفع هذا المبلغ بانتظام كل شهر !؟ إنه لو فعل لما بقى للأسرة كلها إلا ما تعيش به على الكفاف والشظف . وإلى متى ؟ ست سنوات أو سبعاً ، والزمان قاس يدور دورة عكس . كما سمع أذان العشاء سمع أذان الفجر ، ثم أخذته غفوة هتف به خلالها صوت رقيق :

— توكل على الله . . .

استيقظ من نومه وقد عقد عزمه . وفهمت الأم أن لامهرب من الفراق ، فرضيت صامتة وإن لم ينقطع بكاؤها . الى أين ؟ بلاد برة ! كلمة لها رنين وسحر تتسلل ، كروح مبهمة لايطمئن

لها ، إلى المنزل الذى لاتنقطع فيه تلاوة القرآن ، وحيث الشرع هو الحق والعلم جميعا . وثوت هذه الروح فى ركن صغير من الدار وغطت رأسها وتمطت . ونامت متحصرة قريرة العين . بلاد برة ! ينطق بها الأب كأنها إحسان من كافر لامفر من قبوله لاعن ذلة ، بل للتزود بنفس السلاح . أما الأم ، فمنذ الآن تركبها رعدة المحيط وتأخذها رجفة البرد . تتصور بلاد برة فى نهاية سلم عال ينتهى إلى أرض تغطيها الثلوج ، ويسكنها أقوام لهم حيل الجن وألاعيبهم. أما فاطمة النبوية فقلبها واجف تسمع أن نساء أوربا يسرن شبه عاريات وكلهن بارعات فى الفتنة والإغراء . فإذا سافر إسماعيل ، فلا تدرى كيف يعود إن عاد ! .

وجمع الأب كل ما استطاع جمعه من مال ، وباعت الأم حليها واشتريت تذاكر السفر والملابس الثقيلة التى تقى من برد أوربا واقترب موعد السفر وحل الوداع .

واجتمعت الأسرة صامتة حزينة . قلوب خافقة ، وعيون دامعة . وأنشأ الأب يقول لابنه :

— وصيتى إليك أن تعيش فى بلاد برة كما عشت هنا ، حريصا على دينك وفرائضه ، وإن تساهلت مرة فلن تدرى إلى أين يقودك تساهلك ، ونحن يابنى نريدك أن ترجع إلينا مفلحاً لتبيض

وجوهنا أمام الناس . أنا رجل قد أوشكت على الكبر . وقد وضعت كل آمالنا فيك وإياك أن تغرك نساء أوربا ، فهن لسن لك وأنت لست لهن .

ثم صمت الأب قليلا وعاد يقول :

— واعلم أن أمك وأنا قد اتفقنا على أن تنتظرك فاطمة النبوية فأنت أحق بها وهى أحق بك . هى بنت عمك وليس لها غيرك . وإن شئت قرأنا الفاتحة معاً يومنا هذا ، عسى أن يصحب سفرك البركة واليمن .

لم يسعه إلا القبول . فوضع يده فى يد أبيه ، وقرأ الفاتحة بينهما أم تبكى ، وفتاة حيرى بين الأسى والفرح .

كان إسماعيل يعلم أن هذه الفاتحة ستأتى فى يوم ، ولكنه لم يتوقعها فى تلك الليلة . فلقد نشأ مع فاطمة النبوية أخوين وقلما نظر إليها كما نظر إلى فتاته السمراء .

قرأ الفاتحة وهو شارد اللب . إرضاء لأبيه ، وقلبه يقول له : « احفظ عهدك ! » فيجيبه : « لماذا ؟ لماذا ؟ » كل هذه أشياء غامضة ، لأنه حتى اليوم مايزال طاهراً عفيفاً ، لم يقترب من امرأة . وإنه لكاذب — وإسماعيل لا يكذب — إذا أنكر أنه جوعان إلى فتاته السمراء ، إلى النساء جميعاً ، ولا سيما أخيراً ! إلى نساء أوربا .

٥

وخرج اسماعيل يودع بعض أصدقائه ، ثم انتهى الى الميدان وقد اقترب الغروب ، . تتلقف آذانه ما أمكنها من نداءات الباعة التى ألفها ؛ وخيل إليه أن فى الميدان حركة غير التى عهد . كأن القوم أصبحوا أسرع مشية . ما لهم لايلوون على شىء ؟ أفليست الحياة إلا سباقاً ؟ كم ود لو وقف واحد من المندفعين وبادله الحديث . لم يلتفت إليه أحد . فى الميدان حركة النمل تتعارض وتتحاذى وتضرب فى كل اتجاه . قادته قدماه إلى المقام ، فوجده ساكنا على غير عادته . الشيخ درديرى واقف مطأطىء الرأس ، كأنما هو متعب أو تسلط عليه خوف ورهبة . دار إسماعيل حول المقام ، حتى إذا جاء للسور الذى يفصل مكان النساء عن

الرجال انتبه إلى شبح واقف وراءه هى فتاته السمراء ألصقت جبينها على السور . سمر إسماعيل فى مكانه وسمعها تقول هامسة :

— يا أم هاشم : ياستارة على الولايا ، لاتغضى عينيك ولا تشيحى بوجهك . تمد إليك يد مسترحمة فخذيها . إن الله طهرك وصانك وأنزلك الروضة . وإن قلبك لرؤوف . إذا لم يقصدك المرضى والمهزومون والمحطمون ، فمن غيرك يقصدون ؟ إذا نسينا فاذكرى أنت ! متى يمحى المقدر على ؟ أيرضيك أن جسدى ليس منى ، فما أشعر بالألم وهو ينهشه نهشاً . هاهى روحى على عتباتك تتلوى وتتمرغ مصروعة . تريد أن تفيق . منذ غادرنى رضا الله وأنا كالنائم يركبه الكابوس ، يقبض فى يد واحدة على الموت والحياة ! رضيت لحكمه وأسلمت نفسى ، ولن أضيع وأنت هنا معنا . أفيطول الأمد ، أم رحمة الله قريب ؟ نذرت لك يوم يتوب المولى على أن أزين مقامك الطاهر بالشموع . خمسين شمعة ، ياأم هاشم ياأخت الحسين !

ووضعت الفتاة شفتيها على سور المقام . ليست هذه القبلة من تجارتها ، بل من قلبها . ومن ذا الذى يجزم بأن أم هاشم لم تسع إلى السور وقد هيأت شفتيها من ورائه لتبادلها قبلة بقبلة ؟

هم إسماعيل أن يخرج من المسجد ليلحقها ويكلمها ، فلم تتحرك قدماه . أراد أن يفضى لها بكل ما فى نفسه ، إن لحظة الانتزاع من الأسرة والوطن ، لمواجهة الغربة والوحدة والمجهول

دمه؟ أواسم ... ؟ لماذا يهتز لمرآها دون سائر النساء؟ تمشي أعصابه وتعربد لديه
إلا أن صوتاً خفياً يريد أن ينطق في ذاته ويتكلم ويرشده إلى السر
ولكن هناك ألف غطاء وغطاء تكتم هذا الصوت وتخنقه ، ولعل الفتاة لم تره ولم تشعر به . وهرب إسماعيل من حيرته إلى الشيخ درديرى وحديثه الثرثار ينزل بلسما على فؤاده : وقفته في صمت أمام المقام وتحت ضوء القنديل ، ويده معلقة بالسور تارة ، ماسحة على وجهه تارة أخرى ، هي آخر ما يذكره عن رحيله من القاهرة . فكل ما حدث له بعد خروجه من المقام شمله من أخمص قدميه إلى رأسه ، كالتيار المندفع العنيف ، يتأرجح فيه ملقى القياد ، مقلوب الوضع ، فقد خلاله الزمن ترتيبه ، والمرئيات اعتدالها ، والأصوات صدقها وفروقها . وداع الأسرة ، وما أمره ! في الدار وسط النحيب والبكاء ، والمحطة ، والقطار ثم الميناء وحركته والباخرة المجهولة وصفيرها : إنني أتخيله صاعدا سلم الباخرة شاباً عليه وقار الشيوخ ، بطيء الحركة ، غرير النظرة ، أكرش ، ساذجاً ، كل ما فيه ينبيء أنه قروي مستوحش في المدينة . أقسم لي عمي إسماعيل فيما بعد أنه كان يحمل في أمتعته قبقاباً ، فقد سمع الشيخ رجب أن الوضوء في أوربا متعذر لاعتياد الناس لبس الأحذية في البيوت . كما وصف لي وهو يبتسم سراويله وطولها وعرضها وتكتها المحلاوي . وكان معه أيضا سلة ملأى بالكعك و (المنين) من عمل أمه وفاطمة النبوية

وسافرت الباخرة .

٦

ومرت سبع سنوات ، وعادت الباخرة :

من هذا الشاب الأنيق السمهرى القامة : المرفوع الرأس ، المتألق الوجه ، الذى يهبط سلم الباخرة قفزاً ؟ هو والله إسماعيل بعينه . أستغفر الله ! هو الدكتور إسماعيل ، المتخصص فى طب العيون ، والذى شهدت لهجامعات انجلترا بالتفوق النادر ، والبراعة الفذة ، كان أستاذه يمزح معه ويقول له :

— أراهن أن روح طبيب كاهن من الفراعنة قد تقمصت فيك يامستر إسماعيل . إن بلادك فى حاجةإليك ،فهى بلد العميان .

رأى فيه دراية كأنها ملهمة ، وصفاء هو سليل نضج أجيال

طويلة ، ورشاقة أصابع هي وريثة الأيدى التى نحتت من الحجر الصلد دمى تكاد تحيا .

أقبل يا اسماعيل فإنا إليك مشتاقون . لم نرك منذ سبع سنوات مرت كأنها دهور . كانت رسائلك المتوالية ، ثم المتراخية ، لاتنفع فى إرواء غلتنا ، أقبل إلينا قدوم العافية والغيث ، وخذ مكانك فى الأسرة ، فستراها كالآلة وقفت بل صدئت لأن محركها قد انتزع منها . آه ! كم بذلت هذه الأسرة لك . فهل تدرى ؟

لم ينم إسماعيل ليلة الوصول إلا غراراً . قفز إلى ظهر الباخرة مع الفجر يريد ألا يفوته أول ما يبدو من شاطىء الإسكندرية لايرى شيئاً على الأفق ، ولكن خياشيمه تنشم فى النسيم رائحة لم يألفها من قبل . أول من لقيه من وطنه ، مخلوق الكون كله وطنه : طائر أبيض منفرد يحوم حول السفينة ، طليق متعال نظيف ، وحيد : لماذا تتعمد البواخر كل هذا التلكؤ عند الوصول ، وما كان أسرعها عند الفراق ؟ إنها تتهادى بدلال العودة ، فما لها وللركاب وما يشعرون . كتم إسماعيل عن أهله موعد الباخرة حتى لايكلف أباه الشيخ مشقة السفر للإسكندرية فى عزمه أن يبرق إليهم بموعد وصول قطاره للقاهرة : هذا هو الفنار المتمنطق وهذا هو الشاطىء الأصفر يكاد يكون فى مستوى الماء أنت يامصر راحة ممدودة إلى البحر لاتفخر إلا بانبساطها : ليس أمامك حواجز من شعاب خائنة ، ولا على شاطئك جبال تصد : أنت دار كل

ما فيها يوحى بالأمان . . ها هو أول قارب يظهر ، فيه شيخ قد وخط الشيب لحيته ، مقوس الظهر ، أقعى كالقرد فى مقدم قاربه يصطاد ، جلبابه الأزرق ، أو الذى كان أزرق ، ممزق مرقع . وقعت نظرة إسماعيل على سيدة مصرية وقفت بجواره ، فرآها مطلة على الصياد مغرورقة عيناها بالدموع وسمعها تتمتم :

— مصر ! مصر !

كيف ينتبه لها الصياد ، وهو لم ينتبه للباخرة كلها ! مثلها كثيرات داخلات خارجات تكاد تصدم قاربه ، ولكن هيهات لها أن تصدم عالمه المقفل . عالم يجرى على وتيرة واحدة متكررة يوماً بعد يوم . هم إسماعيل أن ينادى هذا الشيخ ويلقى عليه السلام أو يلوح له بمنديل . كيف تسقط المقاييس وينهزم المنطق فى مثل تلك اللحظات التى تتأجج فيها العواطف وتصفو القلوب ! ورن جرس إيذانا بموت الباخرة ، فأصبحت جثتها فريسة للجيش من النمل البشرى يهاجمها . جنود وضباط ، وإخواننا المحتلون ولو أنهم أخلاط مطربشون ، وحمالون وصيارفة وزوار . ثم اندلق الزحام والتدافع ، وتعالت النداءات ، وكثر العناق والتقبيل . وإسماعيل وسط التيار غير مغمور يلتقط بنهم كل ما يصل إليه . وعلى شفتيه ابتسامة حلوة مطمئنة . له أذن فارزة واعية ، ونظرة حية يقظة تريد أن ترى كل شىء ، وتفهم كل شىء . إذا دققت النظر إليه وجدت تكورات وجهه قد زالت ، وشد شدقاه فى أخدودين . كانت شفتاه

مرتخيتين ، قلما تنطبقان . أما الآن فقد ضمهما عزم ووثوق . يجتاز الجمارك . وفي العربة يستمع لوقع عجلاتها بين الأسفلت والبلاط ، فيذكره تنافر النغم وتناوبه بيوم السفر . كم يبدو له هذا اليوم مترديا في هوة من ماضٍ بعيد . بعيد كالحلم . . . . كيف تقوى ذكرى هذا اليوم على البقاء بعد سبع سنوات قضاها في إنجلترا قلبت حياته رأسا على عقب ؟ كان عفا غفوى ، صاحيا فسكر ، راقص الفتيات وفسق . هذا الهبوط يكافئه صعود لا يقل عنه جدة وطرافة . تعلم كيف يتذوق جمال الطبيعة ويتمتع بغروب الشمس — كأن لم يكن في وطنه غروب لا يقل عنه جمالا — ويلتذ بلسعة برد الشمال .

إن لم يكن له في هذه الفترة سوى (مارى) زميلته في الدراسة لكفى بها في نسيان ماضيه . لقد أخذ هذا الفتى الشرقي الأسمر بلبها فآثرته واحتضنته . عندما وهبته نفسها ، كانت هي التي فضت براءته العذراء ، أخرجته من الوخم والخمول إلى النشاط والوثوق ، فتحت له آفاقاً يجهلها من الجمال : في الفن ، في الموسيقى ، في الطبيعة ، بل في الروح الإنسانية أيضا .

قال لها يوماً :

— سأستريح عندما أضع لحياتي برنامجاً أسير عليه .

فضحكت وأجابت :

— يا عزيزى إسماعيل : الحياة ليست برنامجاً ثابتاً ، بل مجادلة متجددة .

يقول لها : « تعالى نجلس » ، فتقول له : « قم نسر » . يكلمها عن الزواج ، فتكلمه عن الحب . يحدثها عن المستقبل ، فتحدثه عن حاضر اللحظة . كان من قبل يبحث دائماً خارج نفسه عن شىء يتمسك به ويستند إليه : دينه وعبادته ، وتربيته وأصولها ، هى منه مشجب يعلق عليه معطفه الثمين . أما هى ، فكانت تقول له : « إن من يلجأ إلى المشجب ، يظل طول عمره أسيراً بجانبه يحرس معطفه . يجب أن يكون مشجبك فى نفسك » . إن أخشى ما تخشاه هى : القيود . وأخشى ما يخشاه هو : الحرية . كانت هبتها له فى مبدأ الأمر محل حيرته ، فكانت حيرته محل سخريتها . كان يتجافى الناس ويقدر احتمالات ودهم ، ويهتم كيف يكون حكمهم عليه . وإذا لقى من تريحه المجاملة لا يجد بأساً فى مجاملته ، وقلبه غير مشارك . التعارف عنده اصطدام بين الشخصيات يخرج منه ظافراً أو خاسراً . أما هى ، فتهيم بالناس جميعاً ، ولا تهتم بهم جميعاً . التعارف عندها لقاء ، والود متروك للمستقبل . ومع تساوى ودها للناس جميعاً ، كانت بتارة فى إقصاء الضعيف ، والسخيف ، والمتعالم ، والرذل ، والحزين ، والمنافق . فلما تخلصت من هذه الأوشاب ، أصبحت لا ينجذب إليها إلا من تطمئن لصحبتهم .

رأته يطيل جلسته بجانب الضعفاء من مرضاه ، ويخص بعطفه

من يلاحظ فيه آثار تخريب الزمن للأعصاب والعقول — وما أكثرهم في أوربا : يجلس صامتاً ينصت لشكواهم : وكان أكبر كرم منه أن يماشي منطقه منطقهم المريض . لحظته (ماري) وحلقة المرضى والمهزومين تطبق عليه يتشبثون به . كل يطلبه لنفسه . فأقلقت وأيقظته بعنف :

— أنت لست المسيح بن مريم ! « من طلب أخلاق الملائكة فليترك أخلاق البهائم ! » و « الإحسان أن تبدأ بنفسك » . هؤلاء الناس غرقى يبحثون عن يد تمد إليهم ، فإذا وجدوها أغرقوها معهم ! إن هذه العواطف الشرقية مرذولة مكروهة ؛ لأنها غير عملية وغير منتجة ، وإذا جردت من النفع ، لم يبق إلا اتصافها بالضعف والهوان ، إنما هذه العواطف قوتها في الكتمان لا في البوح !

كانت روحه تتأوه وتتلوى تحت ضربات معولها : كان يشعر بكلامها كالسكين يقطع من روابط حية يتغذى منها ، إذ توصله بمن حوله . واستيقظ في يوم فإذا روحه خراب لم يبق فيها حجر على حجر . بدا له الدين خرافة لم تخترع إلا لحكم الجماهير والنفس البشرية لا تجد قوتها ، ومن ثم سعادتها ، إلا إذا انفصلت عن الجموع وواجهتها . أما الاندماج فضعف ونقمة .

لم تقو أعصابه على تحمل هذا التيه الذي وجد نفسه غريقاً وحيداً في خلاله ، فمرض وانقطع عن الدراسة ، وافترسه نوع

من القلق والحيرة ، بل بدت فى نظرته أحياناً لمحات من الخوف والذعر .

وكانت (مارى) هى التى أنقذته : أخذته فى رحلة إلى الريف بالإسكتلندية ، يجولان بالنهار مشياً أو على الدراجة بين الحقول أو يصطادان السمك ، وبالليل تذيقه من متعة الحب أشكالا وألوانا . من حسن حظه أنه استطاع أن يجتاز هذه المحنة التى يتردى فيها الكثيرون من مواطنيه الشباب فى أوربا وخلص منها بنفس جديدة مستقرة ثابتة واثقة . إن اطرحت الاعتقاد فى الدين فإنها استبدلت إيمانا أشد وأقوى بالعلم . لا يفكر فى جمال الجنة ونعيمها ، بل فى بهاء الطبيعة وأسرارها . ولعل أكبر دليل على شفائه أنه بدأ يتخلص من سيطرة (مارى) عليه . أصبح لا يجلس بين يديها جلسة المريد أمام القطب ، بل جلسة الزميل إلى زميله . لم يدهش ، ولم يتألم كثيراً ، عندما رآها تبتعد عنه وتنصرف إلى زميل من جنسها ولونها . إنها ككل فنان يمل عمله حين يتم . شفى إسماعيل ففقد كل سحره ، وأصبح كغيره ممن تعرفهم . فلتجرب إذا صديقها الجديد . . . على أن إسماعيل لم يقو على مغادرة انجلترا دون أن يسعى إلى لقائها لآخر مرة . دعاها فلم ترفض وجاءته . ولم يسأل نفسه : أعلى علم من صديقها الجديد أم على غفلة منه ؟ ووهبت له نفسها مرة أخرى ، فهذه العلاقة ليست

عندها بذات بال ولاخطر. كانت ضمتها له نوعاً من المصافحة وسلام الوداع ؛

وهتفت به وهى تنصرف على دراجتها :

ـ آمل أن أراك فى مصر يوماً من الأيام . ومن يدرى ؟ فإلى اللقاء إذاً ، ولا أقول وداعاً ؛

نساء العصر الحديث ! كم ذا يواجهن الاحتمالات بقلوب ثابتة . شجرة الحياة أمامهن مثقلة بالثمر منوعته . لهن شهية مفتوحة فلم التأسي والبكاء على ثمرة ، والشجرة مفعمة ؟

٧

والظاهرة العجيبة التى لا أستطيع تفسيرها أن إسماعيل أفاق من حبه (لمارى) فوجد نفسه فريسة حب جديد . ألأن القلب لا يعيش خالياً ؟ أم أن (مارى) هى التى نبهت غافلا فى قلبه فاستيقظ وانتعش ؟ كان إسماعيل لا يشعر بمصر إلا شعوراً مبهماً ، هو كذرة الرمل اندمجت فى الرمال واندست بينها ، فلا تمييز منها ، ولو أنها مع ذلك منفصلة عن كل ذرة أخرى . أما الآن فقد بدأ يشعر بنفسه كحلقة فى سلسلة طويلة تشده وتربطه ربطاً إلى وطنه : فى ذهنه مصر عروس الغابة التى لمستها ساحرة خبيثة بعصاها

فنامت (١) : عليها الحلى ، و (دواق) (٢) ليلة الدخلة . لارعى الله عيناً لم ترجاها ، ولا أنفاً لا يشم عطرها! متى تستيقظ؟ متى ؟ وكلما قوى حبه لمصر ، زاد ضجره من المصريين . ولكنهم أهله وعشيرته ، والذنب ليس ذنبهم . هم ضحية الجهل والفقر والمرض والظلم الطويل المزمن . إنه حدق فى الموت مراراً ، وجس المحموم ، واقترب فمه من فم المحموم . ترى هل ينكص الآن عن لمس هذه الكتلة البشرية التى لحمه من لحمها ودمه من دمها ؟ قد عاهد نفسه فى حبه لمصر ألا يرى منكراً إلا دفعه : علمته (مارى) كيف يستقل بنفسه ، وهيهات لهم بعد ذلك أن يجرعوه خرافاتهم وأوهامهم وعاداتهم . ليس عبثاً أن عاش فى أوربا وصلى معها للعلم ومنطقه : علم أن سيكون بينه وبين من يحتك بهم نضال طويل ، ولكن شبابه هون عليه القتال ومتاعبه . بل كان يتشوق إلى المعركة الأولى : وسرح ذهنه فإذا هو كاتب فى الصحف أو خطيب فى أحد المجتمعات يشرح للجمهور آراءه ومعتقداته :

وتحرك القطار بإسماعيل ولم يرسل برقيته . لا يدرى لماذا ضعف عن لقائهم بالمحطة وسط الضجيج والضوضاء وعلى أعين الناس ، وربكة المتاع . إنه يود أن يأتى أعزاءه فى دارهم ، وعلى

---

(١) اشارة الى أسطورة أوربية شائعة .. بقيتها أن تلك العروس لا يوقظها من سباتها السحرى سوى مقدم أمير جميل يعشقها .

(٢) زينة من الترتر توضع على طرحة العروس البيضاء .

نجوة من الغرباء. ولم يقدر وقع المفاجأة على أبيه وأمه العجوز ، ذكرهما فوجف قلبه : هل يستطيع أن يؤدى لهما بعض ما هو مدين به ؟ إنه قادم مزود بنفس السلاح الذى أراده له أبوه ، وسيشق لنفسه بهذا السلاح طريقه إلى أول الصفوف . وسيعرض عن خدمة الحكومة ويفتح عيادة فى أرقى أحياء القاهرة . وسيدهش القاهريين أولا ثم المصريين جميعاً بما أتقنه من فن واكتسبه من خبرة . فإذا تدفق عليه المال أعفى أباه الشيخ من العمل ، واشترى له أرضاً فى بلدهم ليعيش مستريحاً . ثم وجم إسماعيل ، لقد تذكر أنه لم يأت معه من أوربا بهدية لأسرته ، وسرى عنه إذ قال لنفسه :

— ماذا فى أوربا كلها يصلح لأبى وأمى ؟

وفاطمة النبوية ؟ ذكراها تثير فى نفسه بعض الاضطراب لم يزل مرتبطاً بوعده ، وقد عاد حراً ، فلا عذر له إذا اعتبر هذه مسألة معقدة فليتركها للمستقبل .

وأطل من النافذة فرأى أمامه ريفاً فقيراً كأنما اكتسحته عاصفة من الرمل ، فهو مهدم متآكل متخرب . الباعة على المحطات فى ثياب ممزقة ، تلهث كالحيوانات المطاردة ، وتتصبب عرقاً .

ولما سارت العربة من المحطة ، ودخلت شارع الخليج الضيق الذى لا يتسع لمرور الترام ، كان أشبه ما يكون بأعرق حارة :

قذارة وذباب ، وفقر وخراب ، فانقبضت نفسه ، وركبه الوجوم والأسى ، وزاد لهيب الثورة فى قرارة نفسه ، وزاد التحفز.

ووقف أمام البيت ، وتناول مطرقته ، وتركها تسقط ؛ فاختلطت دقتها بدقات قلبه . سمع صوتاً رقيقاً ينادى بلهجة نساء القاهرة :

ــ مين ؟

ــ أنا إسماعيل ! افتحى يا فاطمه !

٨

يا اسماعيل: ما أقساك ! وما أجهل الشباب !

كادت أمه يغمى عليها ، وانعقد لسانها وهى تضمه وتقبل وجهه ويديه ، تشهق وتبكى . يالله ! كم شاخت وتهدلت وضعف صوتها وبصرها ! إن الغائب فى وهم ، يتوقع أن يعود لأحبابه فيجدهم كما تركهم منذ سنوات . صوت يهمس فى قلبه :

ـ ليست لها من الشخصية نصيب ! ليست إلا كتلة من طيبة سلبية .

وجاءه أبوه تفيض عليه ابتسامة هادئة . اشتعل شيبه وإن لم تنحن قامته . فى عينيه نظرة مشوبة من إعياء وصبر ، من راحة

ضمير وشعور بالحمل الثقيل . سيعلم إسماعيل فيما بعد أن الأزمة كوته بنارها فانتكست أموره ، ومع ذلك لم يتأخر فى يوم ما عن موعد إيداع النقود بالبنك لابنه . لم يذكر لإسماعيل ما يعانيه أو يدعوه إلى الاقتصاد أو يستعجله للعودة : يلهو اسماعيل فى أسكتلندة مع رفيقته ، يأكل البفتيك ، وأبوه قعيد داره ، عشاؤه طعمية أو فجل :

لاسماعيل نظرة من طرف عينيه تطوف فى الدار ، فاذا هى أضيق أوشد ظلمة مما كان يذكر . أما يزال ضوؤهم من مصباح البترول ؟ قطع الأثاث بالية متناثرة تبدو — رغم مر السنين وطول الصحبة — كأنها مهاجرة فى دار غربة ، ولماذا هم على البلاط وأين البساط ؟

هذه أم محمد ترتبك كعادتها بين الأطباق والحلل وهى تزغرد فيزجرها ويقول لها :

— بس بلاش خوته ، ياوليه اعقلى .

ولكن أين فاطمة النبوية ؟ أقبلت ، فاذا أمامه فتاة فى شرخ الصبا : ضفيرتاها ، وأساورها الزجاجية الرخيصة ، وحركاتها ، وكل ما فيها وما عليها ، يصرخ بأنها قروية من أعماق الريف : هل هذه هى الفتاة التى سيتزوجها ؟ علم منذ اللحظة أنه سيخون وعده وينكث عهده : وما لها معصوبة العينين ؟ فهى ترفع ذقنها لتستطيع

أن ترى وجهه . لم يدعها الرمد منذ سافر وساء حالها يوماً بعد يوم .

وأعد العشاء وجلسوا ، ولعلهم جلسوا من أجله حول مائدة لهم من الخشب الأبيض ، لم يأكل عليها أحد . لم يأكلوا هم من حدة الفرح ، ولم يأكل هو من صدمة اليقظة . اعترف لى إسماعيل فيما بعد بأنه — حتى فى اللحظة التى كان يجب أن تشغله سعادة العودة إلى أحضان والديه عن القياس والمقارنة والنقد — لم يملك نفسه عن التساؤل ! كيف يستطيع أن يعيش بينهم ؟ وكيف يجد راحته فى هذه الدار ؟

وأعد الفراش . وأبى الشيخ وجب إلا الانصراف إلى غرفته ليترك ابنه يستريح من عناء السفر . وهذه أمه تجذب نفسها حذباً وتهم بتركه ، ولكنها تشير إلى فاطمة وتقول :

— تعالى يافاطمة ، قبل أن تنامى ، أقطر لك فى عينيك .

ورأى إسماعيل أمه وفى يدها زجاجة صغيرة ، وترقد فاطمة على الأرض وتضع رأسها على ركبة الأم ، فتسكب من الزجاجة فى عينيها سائلا تتأوه منه فاطمة وتتألم .

سألها إسماعيل :

— ما هذا يا أمى ؟

— هذا زيت قنديل أم هاشم . تعودت أن أقطر لها منه كل مساء .

لقد جاءنا به صديقك الشيخ درديرى . إنه يذكرك ويتشوق إليك .هل تذكره ؟ أم تراك نسيته ؟

قفز إسماعيل من مكانه كالملسوع . أليس من العجيب أنه — وهو طبيب عيون — يشاهد فى أول ليلة من عودته ، بأية وسيلة تداوى بعض العيون الرمداء فى وطنه ؟ . . .

تقدم إسماعيل إلى فاطمة فأوقفها ، وحل رباطها ، وفحص عينيها ، فوجد رمدا قد أتلف الجفنين وأضر بالمقلة ، فلو وجد العلاج المهدىء المسكن لتماثلت للشفاء ، ولكنها تسوء بالزيت الحار الكاوى .

فصرخ فى أمه بصوت يكاد يمزق حلقه :

— حرام عليك الأذية . حرام عليك . أنت مؤمنة تصلين فكيف تقبلين أمثال هذه الخرافات والأوهام ؟

وصمتت أمه وانعقد لسانها ، تحاول أن تتمتم ولا تبين.

ورأى إسماعيل شبح أبيه على الباب ، فى جلباب أبيض قصير وعلى رأسه طاقية تحتها وجه مربد. هل يتوقع قلبه الحنون مكروهاً ؟ ماذا ؟ لعل فى تصرفات إسماعيل وحركاته ونظراته ما أيقظ فى نفسه منذ اللحظة الأولى بعض الريبة .ما هذا الصراخ ؟ ماذا حدث ؟

ونطقت أمه أخيراً تستعيذ بالله وتقول له :

ـ اسم الله عليك يااسماعيل يابنى . ربنا يكملك بعقلك هذا غير الدوا والأجزا . هذا ليس إلا من بركة أم هاشم .

وإسماعيل كثور هائج لوحت له بغلالة حمراء .

ـ أهى دى أم هاشم بتاعتكم هى اللى ح تجيب للبنت العمى ستر ون كيف أداويها فتنال على يدى أنا الشفاء الذى لم تجده عند الست أم هاشم .

ـ يابنى ده ناس كثير بيتباركوا بزيت قنديل أم العواجز جربوه وربنا شفاهم عليه . إحنا طول عمرنا جاعلين تكالنا على الله وعلى أم هاشم .ده سرها باتع .

ـ أنا لا أعرف أم هاشم ولا أم عفريت .

هبط على الدار صمت مقبض كصمت القبور . فى هذا البيت تعيش قراءة القرآن والأوراد ، وصدى الأذان . كأنها جميعاً استيقظت وانتبهت ، ثم أطرقت وانطفأت ، وحل محلها ظلام ورهبة . . . لا عيش لها مع هذه الروح الغريبة التى جاءت لهم من وراء البحار .

وسمع صوت أبيه كأنما يصل إليه من مكان سحيق :

ـ ماذا تقول ؟ هل هذا كل ما تعلمته فى بلاد بره ؟ كل ما كسبناه منك أن تعود إلينا كافراً ؟

كل ما فعله إسماعيل بعد ذلك يدل على أن المرض العصبي القديم قد عاوده فجأة ، وانفجر بشدة من جديد . فقد وعيه وشعر بحلقه يجف ، وبصدره يشتعل ، وبرأسه يموج فى عالم غير هذا العالم . شب على قدميه واقفاً . لاشك أن فى نظرته ما يخيف ، فقد تضاءلت الأم أمامه وابتعد الأب عن طريقه . هجم إسماعيل على أمه يحاول أن ينتزع منها الزجاجة ، فتشبثت بها لحظة ثم تركتها له . فأخذها من يدها بشدة وعنف ، وبحركة سريعة طوح بها من النافذة .

وكان صوت تحطمها فى الطريق كدوى القنبلة الأولى فى المعركة .

ووقف إسماعيل حائراً لحظة ، له نظرة تجوب ما حوله وتتنقل من وجه أمه وفاطمة إلى وجه أبيه . وجد إشفاقاً وعطفاً ولم يجد تسامحاً وفهماً . ربما استشف فى نظرتهم بعض الرعب فتزايد هياجاً وانطلق إلى الباب . وفى طريقه وجد عصا أبيه فأخذها ثم هرب من الدار جرياً . لن ينكص عن أن يطعن الجهل والخرافة فى الصميم طعنة نجلاء — ولو فقد روحه .

٩

أشرف على الميدان فإذا به يموج كدأبه بخلق غفير ضربت عليهم المسكنة ، وثقلت بأقدامهم قيود الذل . ليست هذه كائنات حية تعيش فى عصر تحرك فيه الجهاد . هذه الجموع آثار خاوية محطمة كأعقاب الأعمدة الخربة ، ليس لها ما تفعله إلا أن تعثر بها أقدام السائر . ما هذا الصخب الحيوانى ؟ وما هذا الأكل الوضيع الذى تلتهمه الأفواه ؟ يتطلع إلى الوجوه فلا يرى إلا آثار استغراق فى النوم كأنهم جميعاً صرعى أفيون . لم ينطق له وجه واحد بمعنى إنسانى . هؤلاء المصريون : جنس سمج ثرثار أقرع أمرد ، عار حاف ، بوله دم ، وبرازه ديدان . يتلقى الصفعة

على قفاه الطويل بابتسامة ذليلة تطفح على وجهه . ومصر ؟ قطعة (مبرطشة) من الطين أسنت فى الصحراء ، تطن عليها أسراب من الذباب والبعوض ، ويغوص فيها إلى قوائمه قطيع من الجاموس نحيل . . . يزدحم الميدان ببائعى اللب والفول ، وحب العزيز ، ونبوت الغفير ، والهريسة والسمبوسكة ، بمليم الواحدة . فى جنباته مقاه كثيرة على الرصيف بجوار الحلوان ، قوامها موقد وإبريق وجوزة . أجساد لم تعرف الماء سنين . الصابون عندها والعنقاء سواء . تمر أمامه فتاة مزججة الحواجب ،مكحلة العينين، شدت ملاءتها لتبرز عجيزتها وطرف ثوبها ، وتحجبت ببرقع يكشف عن وجهها . وما معنى هذه القصبة التى تضعها على أنفها ؟ أف ! ما أبشع رياء هذا المنظر وما أقبحه ! سرعان ما بدأ الناس يتحككون بها كأنهم كلاب لم يروا فى حياتهم أنثى ! هنا جمود يقتل كل تقدم وعدم لا معنى فيه للزمن ، وخيالات المخدر ، وأحلام النائم والشمس طالعة . . .

لو استطاع إسماعيل لأمسك بذراع كل واحد منهم وهزه هزة عنيفة وهو يقول :

— استيقظ. استيقظ من سباتك وأفق ، وافتح عينيك . ما هذا الجدل فى غير طائل ؟ والشقشقة والمهاترة فى سفاسف؟ تعيشون فى الخرافات ، وتؤمنون بالأوثان ، وتحجون للقبور وتلوذون بأموات !

وعثرت قدمه بطفل ملقى على الرصيف ، والتف حوله جموع من الشحاذين يعرضون عليه عاهات يرتزقون منها رزقاً حلالا . كأنها من نعم الله عليهم ، أو مهن وصناعات .

وشعر إسماعيل بأن هذه الجموع أشلاء ميتة تطبق على صدره وتكتم أنفاسه ، وتبهظ أعصابه . يصطدم به بعض المارة كأنهم عمى يتخبطون . هذا الرضا عجز ، وهذه الطيبة بلاهة ، وهذا الصبر جبن ، وهذا المرح انحلال .

انفلت إسماعيل من الزحام ، وجرى إلى الجامع ودخله واجتاز الصحن إلى الحرم . المقام يتنفس بدل الهواء أبخرة ثقيلة من عطور البرابرة . هذا هو القنديل قد علق التراب بزجاجه واسودت سلسلته من (هبابه) . تفوح منه رائحة احتراق خانقة . أكثر ما ينبعث منه دخان لا بصيص ضوء . هذا الشعاع إعلان قائم للخرافة والجهل . يحوم فى سقف المقام خفاش اقشعر له بدنه . حول المقام أناس كالخشب المسندة وقفوا مشلولين متشبثين بالأسوار . فيهم رجل يستجدى صاحبة المقام شيئاً لم يفهمه إسماعيل وإنما وعى أنه يستعديها على خصم له ، ويسألها أن تخرب بيته وتيتم أطفاله . والتفت إسماعيل إلى ركن فى المقام فوجد الشيخ درديرى يناول رجلا معصوب الرأس بمنديل نسائى زجاجة صغيرة فى حرص وتستر . كأنما هى بعض المهربات . لم يملك

إسماعيل نفسه . . . فقد وعيه ، وشعر بطنين أجراس عديدة وزاغ بصره ، ثم شب ، وأهوى بعصاه على القنديل فحطمه وتناثر زجاجه ، وهو يصرخ :

ــ أنا . . . أنا . . . أنا . . . (١)

ثم لم يستطع أن يتم جملته . (ومن يدرى ماذا كان سيقول ؟) هجمت عليه الجموع ، وتهدمت فوقه ، فخر على الأرض مغمى

---

(١) مكثت أكثر من أسبوع أبحث عن الكلام الذى ينبغى أن ينطق به اسماعيل فى هذا الموقف ، وقد أحسست أنه يجب ألا يزيد عن لفظ واحد ، اذ ليس من المعقول أن ينطق بجملة طويلة وهو فى تلك الحال . واردت أن يكون هذا اللفظ معبرا عن الأنين وعن الرغبة فى البوح .. وفى الاستعطاف .. وفى تأكيد الانتماء .. وبينما أنا حائر فى البحث عن الكلمة المناسبة اذ تذكرت نصا كنت قرأته عن حياة الفيلسوف الألمانى « نيتشة » وبقى منه فى ذهنى أنه حين أصيب بلوثة الجنون هبط من بيته الذى كان يقع فوق قمة جبل مرتفع وهو يصرخ : « أنا .. أنا .. أنا » .

عندئذ أدركت أن هذه هى الكلمة التى كنت أبحث عنها ، لأنها تجسد كل المعانى التى طلبتها ، خاصة وأن حرف النون فيه نغمة الأنين .

ولعل الذى قادنى الى تذكر هذا النص أن اسماعيل فى هذا الموقف كان هو الآخر قريبا من الجنون .

وهكذا يتأكد اعتقادى بأن الذى يضفى على النص الأدبى قدرا من قيمته هو اشاراته الخفية الى أعمال أدبية أخرى ممتازة ، فكأن للأدب كيانا متكاملا اشترك فى تشييده كل من سبقونا ومن يعاصروننا من كبار الكتاب فى كل اللغات .

وأرجو أن ترجع فى ذلك الى مقال «لمن يكتب الكاتب؟» فى كتابى «أنشودة للبساطة» . (ى.ح.)

(٢/٥/١٩٧٤)

عليه . ضربوه ، وداسوه بالأقدام ، وجرح رأسه ، وسال الدم على وجهه ، ومزقت ثيابه .

علمنا بعد ذلك أنه أشرف على الموت تحت الأقدام لولا أن تعرف عليه الشيخ درديرى ، فأنقذه واستخلصه من غضب الناس وعنفهم وهو يقول :

— اتركوه ! إننى أعرفه . هذا سى إسماعيل ابن الشيخ رجب من حتتنا . اتركوه . ألا ترون أنه (مربوح) .

واحتمله إلى الدار ، ووضعوه على الفراش ، واجتمعت الأسرة فى ليلة الفرح بعودته تبكى صوابه المفقود .

لعن الله اليوم الذى سافرت فيه يا إسماعيل ؟ ليتك ظللت بيننا ولم تفسدك أوربا فتفقد صوابك ، وتهين أهلك ووطنك ودينك .

صكت الأم وجهها ، وتأوه الأب وكتم ألمه وغيظه وسكبت فاطمة دموعها مدرارا .

١٠

ومرت أيام كثيرة وإسماعيل لا يغادر الفراش . ركبه العناد فأدار وجهه للجدار لا يكلم أحداً ولا يطلب شيئاً . ولما أفاق قليلا بدأ يفكر : هل يعود إلى أوربا ليعيش وسط أناس يفهمون الحياة ؟ إن الجامعة عرضت عليه منصب مساعد أستاذ فرفضه بغباوة ولعلهم يقبلونه الآن إذا طلب . ولم لا يتزوج هناك ، ويبني لنفسه أسرة جديدة بعيداً عن هذا الوطن المنكود ؟ لماذا ترك إنجلترا بريفها الجميل ، وأمسياتها الهنية ، وقسوة شتائها الجبار ، وجاء لبلد يفرون فيه من بعض الرذاذ كأنما تحيق بهم نكبة أو يدهمهم طوفان ؟ أما يدرون أن هناك وجوهاً صامتة ونظرة ثابتة ،

تستر تحت المطر والثلوج ، تقاوم الأعاصير ؟ وما فائدة الجهاد فى بلد كمصر ومع شعب كالمصريين ، عاشوا فى الذل قروناً طويلة فتذاوقوه واستعذبوه ؟

ثم أخذته غفوة ، واختلط عليه الأمر . إنه كالطير قد وقع فى فخ ، وأدخلوه القفص ، فهل له من مخرج ؟ يشعر بجسمه وقد شد إلى هذه الدار التى لا يطيقها ، وربط إلى هذا المدان الذى يكرهه ، فمهما حاول فلن يستطيع فكاكا .

واستيقظ إسماعيل ذات صباح وهو يشعر بنشاط عجيب : فى مثل هذه الأحوال يقفز الشخص من النقيض إلى النقيض فجأة وبلا سبب ظاهر . وخرج من الدار مبكراً ، وعاد يحمل حقيبة ، ملأى بالزجاجات والأربطة والمزاود ، وبدأ علاجه لفاطمة كما يقتضيه طبه وعلمه . لقد عالج فى أوربا أكثر من مائة حالة مثلها فلم يخنه التوفيق فى واحدة . فلماذا لا ينجح مع فاطمة أيضا ؟ وسلمت الفتاة إليه نفسها مطمئنة ، لا يهمها مرضها بقدر ما يهمها أن تكون بين يديه ، موضع عنايته ورفقه . وتجنبه أبوه وأمه ولم يعودا يعارضانه فى شيء إشفاقاً على صحته .

فى الصباح تجلس فاطمة بين يديه وقبل النوم . ومريوم وثان وثالث ورابع ، وأسبوع وآخر ، وعيون فاطمة على حالها ثم إذا بها تسوء فجأة وتلتهب ، ويختلط سوادها بالبياض .

ضاعف إسماعيل عنايته ، وكرر أنواع الأدوية ، وقلب جفونها ومس ، وقطر ومرهم ، وكشط ومسح ، فما أجدى طبه نفعاً إنه ليس بالجاهل ، يرى أمامه فاطمة اقتربت من العمى ولا ينقذها فى علمه حيلة .

أخذها إلى زملائه فى كلية الطب ، وعرضها على الأساتذة فوافقوه على طريقته فى العلاج ، ونصحوه بالاستمرار .

فقاوم وثابر . . . وأخيراً استيقظت فاطمة على صباح وهى تفتح عينيها ولا ترى . . . لقد انطفأ آخر بصيص تتعزى به .

١١

هرب إسماعيل من الدار، لم يستطع الإقامة فيها وفاطمة أمامه ، وعماها دليل على عماه . عيون أبيه وأمه تلومانه . ما الذى حدث ؟ لماذا أخفق ؟ إنه لا يفهم شيئاً . أين يذهب ؟ لم يبدأ بعد عملا ، ولا هو بقادر ولا راغب فى الالتجاء للحكومة لتعيينه فى إحدى القرى النائية . باع كتبه وبعض الأدوات التى أحضرها معه من أوربا ، وسكن فى غرفة ضيقة فى بنسيون مدام إفتاليا وهى سيدة يونانية بدينة أخذت تستغله منذ أول وقوعه فى يدها حتى لتكاد تضع فى كشف الحساب تحية الصباح، أو تستقضيه خطوتها إذا قامت وفتحت له الباب حاسبته مرة على قطعة سكر استزادها

فى إفطاره . يحس بابتسامتها أصابع تفتش جيوبه : أهداها بعض الفطائر والسجائر فأخذتها نهمة متلهفة ، وفى الصباح سألته أن لايطيل السهر فى غرفته حرصاً على الكهرباء. لا شك أن الإفرنج فى مصر من طينة أخرى غير التى رآها فى أوربا . كان يحبس نفسه فى غرفته ، فطردته هذه المعاملة إلى الشوارع يجوبها من الصباح إلى منتصف الليل . وفى كل ليلة يجد نفسه — ولا يدرى كيف — وسط ميدان السيدة يجوب حول داره ، يتطلع إلى نوافذها ، يريد أن يرى وجه فاطمة أو يسمع صوتها . فاطمة ضحيته ، ومع ذلك لم تثر . . . لم تشك . . . لم تلمه . أسلمت إليه نفسها عن رضى فأوردها التلف ، فما قالت لذابحها تريث...

وهكذا يظل واقفاً فى الميدان ، ساعات طويلة ، سارح الذهن شارد اللب ، تتسرب إلى أذنه النداءات القديمة . هى هى لم تتغير : ماذا ؟ لعل كل والد أورث ابنه مهنته وصوته وموضعه فى الميدان : مساكين ! كل من خدمهم من عليهم واستعجلهم الجزاء أضعافاً مضاعفة . لم يخدمهم أحد لله أو حباً فيهم ، ومع ذلك جروا وراء كل من توهموا فيه الإخلاص وتشبثوا بأذياله ورفضوا أن يروا ضعفه أو خيانته . هذا شعب شاخ فارتد إلى طفولته . لو وجد من يقوده لقفز إلى الرجولة من جديد فى خطوة واحدة فالطريق عنده معهود والمجد قديم ، والذكريات باقية .

تساءل إسماعيل : هل فى أوربا كلها ميدان كالسيدة زينب ؟

هناك أبنيه ضخمة جميلة، وفن راق ، وأناس وحيدون فرادى، وقتال بالأظافر والأنياب، وطعن من الخلف واستغلال بكل الوسائل . مكان الشفقة والمحبة عندهم بعد العمل وانتهاء النهار يروحون بها عن أنفسهم كما يروحون عنها بالسينما والتياترو . .

ولكن . لا . لا . . لو أسلم نفسه لهذا المنطق لأنكر عقله وعلمه . من يستطيع أن ينكر حضارة أوربا وتقدمها ، وذل الشرق وجهله ومرضه؟ لقد حكم التاريخ ولا مرد لحكمه، ولا سبيل إلى أن ننكر أننا شجرة أينعت وأثمرت زمنا ثم ذوت .

يفر إسماعيل من الميدان إلى غرفته ، ويقضي ليلته يفكر كيف يهرب لأوربا من جديد ، ولكنه لايلبث أن يعود إلى موقفه المعهود بميدان السيدة في مساء الليلة التالية .

١٢

وجاء رمضان فما خطر له أن يصوم . ابتدأ يطيل وقفته فى الميدان ويتدبر : فى الجو ، فى الهواء ، فى المخلوقات ، فى الجمادات كلها شىء جديد لم يكن فيها من قبل . كأن الوجود خلع ثوبه القديم واكتسى جديداً . علا الكون جو هدنة بعد قتال عنيف.

يحدث إسماعيل نفسه : لماذا خاب ؟ لقد عاد من أوربا بجعبة كبيرة محشوة بالعلم ، عندما يتطلع فيها الآن يجدها فارغة ، ليس لديها على سؤاله جواب . هى أمامه خرساء ضئيلة ، ومع خفتها فقد رآها ثقلت فى يده فجأة .

ودار بعينيه فى الميدان . وتريثت نظرته على الجموع فاحتملتها

وابتدأ يبتسم لبعض النكات والضحكات التي تصل إلى سمعه فتذكره هي والنداءات التي يسمعها بأيام صباه . . . ما يظن أن هناك شعبا كالمصريين حافظ على طابعه وميزته رغم تقلب الحوادث وتغير الحاكمين . (ابن البلد) يمر أمامه كأنه خارج من صفحات (الجبرتي) . أطمأنت نفس إسماعيل وهو يشعر أن تحت أقدامه أرضا صلبة . ليس أمامه جموع من أشخاص فرادى ، بل شعب يربطه رباط واحد : هو نوع من الإيمان ، ثمرة مصاحبة الزمان والنضج الطويل على ناره . وعندئذ بدأت تنطق له الوجوه من جديد بمعان لم يكن يراها من قبل . هنا وصول فيه طمأنينة وسكينة والسلاح مغمد . وهناك نشاط فى قلق وحيرة ، وجلاد لايزال على أشده والسلاح مسنون . ولم المقارنة ؟ إن المحب لا يقيس ولا يقارن وإذا دخلت المقارنة من الباب ، ولى الحب من النافذة .

وحلت ليلة القدر . . فانتبه لها إسماعيل ، فى قلبه لذكراها حنين غريب . ربى على إجلالها والإيمان بفضائلها ، ومنزلتها بين الليالى ، لايشعر فى ليلة أخرى — حتى ولا ليالى العيد — بمثل ما يشعر به من خشوع وقنوع لله . هى فى ذهنه غرة بيضاء وسط سواد الليالى . كم من مرة رفع فيها بصره إلى السماء فبهره من النجوم جمال لايراها تنطق به بقية العام .

وغاب لحظة عن أفكاره ، فإذا به ينتبه على صوت شهيق

وزفير عميقين يجوبان الميدان . هذا هو سيدى العتريس ولاريب رفع بصره . القبة فى غمرة من ضوء يتأرجح يطوف بها . انتفض إسماعيل من رأسه إلى أخمص قدميه . أين أنت أيها النور الذى غبت عنى دهراً ؟ مرحبا بك ! لقد زالت الغشاوة التى كانت ترين على قلبى وعينى . وفهمت الآن ما كان خافياً على . لاعلم بلا إيمان . إنها لم تكن تؤمن بى ، إنما إيمانها ببركتك أنت وكرمك ومنك . ببركتك أنت ياأم هاشم .

ودخل إسماعيل المقام مطأطىء الرأس فأبصره يرقص عليه ضوء خمسين شمعة زينت جوانبه ، والشيخ درديرى يتناولها واحدة واحدة من فتاة طويلة القامة سمراء اللون ، جعدة الشعر. هى نعيمة ! ! قد زال انطباق شفتيها وبدت لها أسنان . وإن تكلمت فصف من أسنان بيض كاللؤلؤ . تكفى النظرة إليها أن تنسى وجود كل قبيح .

لقد صبرت وآمنت ، فتاب الله عليها ، وجاءت توفى بنذرها بعد سبع سنوات . لم تقنط ، ولم تثر ، ولم تفقد الأمل فى كرم الله .

أما هو — الشاب المتعلم ، الذكى المثقف — فقد تكبر وثار وتهجم وهجم ، وتعالى فسقط .

ورفع إسماعيل بصره ، فإذا القنديل فى مكانه يضىء كالعين

المطمئنة التى رأت ، وأدركت ، واستقرت. خيل إليه أن القنديل. وهو يضىء ، يومىء إليه ويبتسم .

وجاءه الشيخ درديرى يسأله عن صحته وأخباره ، فيميل عليه إسماعيل يقول :

ـ هذه ليلة مباركة ياشيخ درديرى ، آعطنى شيئا من زيت القنديل .

ـ والله انت بختك كويس. . دى ليلة القدر ؟ وليلة الحضرة كمان .

وخرج إسماعيل من الجامع وبيده الزجاجة وهو يقول فى نفسه للميدان وأهله :

ـ تعالوا جميعاً إلى ! فيكم من آذانى ، ومن كذب على ، ومن غشنى ، ولكنى رغم هذا لايزال فى قلبى مكان لقذارتكم وجهلكم وانحطاطكم ، فأنتم منى وأنا منكم ، أنا ابن هذا الحى أنا ابن هذا الميدان . لقد جار عليكم الزمان، وكلما جار واستبد، كان إعزازى لكم أقوى وأشد .

ودخل الدار ونادى فاطمة :

ـ تعالى يافاطمة ! لاتيأسى من الشفاء . لقد جئتك ببركة أم هاشم ! ستجلى عنك الداء ، وتزيح الأذى، وترد إليك بصرك فإذا هو حديد . . .

وشد ضفيرتها واستمر يقول :

— وفوق ذلك ، سأعلمك كيف تأكلين وتشربين ، وكيف تجلسين وتلبسين ، سأجعلك من بنى آدم .

وعاد من جديد إلى علمه وطبه يسنده الإيمان . لم ييأس عندما وجد الداء متشبثاً قديما ، يجادله بعناد ولا يتزحزح . ثابر واستمر ولاحت بارقة الأمل . ففاطمة تتقدم للشفاء على يديه يوماً بعد يوم ، وإذا بها تكسب فى آخر العلاج ما تأخرته فى مبدئه ، فهى تقفز أدواره الأخيرة قفزاً .

ولما رآها ذات يوم أمامه سليمة فى عافية ، فتش فى ذهنه وقلبه عن الدهشة التى كان يخشاها ، فلم يجدها .

١٣

وافتتح إسماعيل عيادته في حي البغالة بجوار التلال ، في منزل يصلح لكل شيء إلا لاستقبال مرضى العيون . الزيارة بقرش واحد لايزيد . ليس من زبائنه متأنقون ومتأنقات ، بل كلهم فقراء، حفاة وحافيات، والغريب أن شهرته استقرت في القرى المجاورة للقاهرة دون القاهرة ذاتها ، فاكتظت داره بالفلاحين والفلاحات ، يجيئون بهدايا من البيض والعسل والبط والدجاج

كم من عملية شاقة نجحت على يديه ، بوسائل لو رآها طبيب أوربا لشهق عجباً . استمسك من علمه بروحه وأساسه ، وترك المبالغة في الآلات والوسائل اعتمد على الله ، ثم على علمه ويديه، فبارك الله في علمه ويديه . ما ابتغى الثروة ولا بناء العمارات

وشراء الأطيان ، وإنما قصد أن ينال مرضاه الفقراء شفاءهم على يديه .

وتزوج إسماعيل فاطمة ، وأنسلها خمسة بنين وست بنات .

وكان فى آخر أيامه ضخم الجثة ، أكرش ، أكولا نهما ، كثير الضحك والمزاح والمرح ، ملابسه مهملة ، تتبعثر على أكمامه وبنطلونه آثار رماد سجائره التى لاينفك يشعل جديدة من منتهية . وأصيب بالربو فاحتقن وجهه ، وتندى العرق على جبينه ، وانقلب تنفسه إلى نوع من الموسيقى . وأصبح من يشاهده لايدرى أهو متعب أم مستريح . فلما احتبست ضحكاته فى حلقه ، اجتمعت فى عينيه ، فليس هناك عيون أقوى على التعبير من عيون المصدورين يكاد يقفز منها إليك شيطان لعوب ، كلها حب وفهم ، فيها خبث وطيبة ، وتسامح وإعزاز ، وكأنها تقول لك قبل كل شىء :

— ليس كل ما فى الوجود أنا وأنت ، هناك جمال وأسرار ومتعة وبهاء . السعيد من أحسها ، فعليك بها عليك . . .

إلى الآن يذكره أهل حى السيدة بالجميل والخير ، ثم يسألون الله له المغفرة . مم ؟ لم يفض إلى أحد بشىء ، وذلك من فرط إعزازهم له . غير أنى فهمت من اللحظات والابتسامات أن عمى ظل عمره يحب النساء ، كأن حبه لهن مظهر من تفانيه وحبه للناس جميعا .

رحمه الله . . .

السلحفاة تطير

هذه(١) قصة خيالية، ولكنها ليست خرافة ، فوقائعها محتملة الحدوث ، وبطلها ليس مستحيلا وجوده ، ومن يدرى ؟ ربما كان حيا يرزق ! والواقع أننى أعرفه ، بل تربطنى به صلة أقوى وأشهى من القرابة والنسب ، صلة الجوار . فنحن أولاد حارة واحدة . أسارع وأقول إنها — والحمد لله — حارة مسدودة

---

(١) نشرت لأول مرة فى جريدة « الرياضة الاسبوعية » ، العدد ١٥٠ ، ١٦/١٢/١٩٣٩ ، ص ٢٠ . وعنوان « السلحفاة تطير » يشير الى القصة المعروفة فى «كليلة ودمنة» حيث « اتفقت سلحفاة مع بطتين صديقتين على حملها الى مكان فيه ماء، فأخذت كل بطة بطرف عود وطلبتا من السلحفاة أن تتعلق بوسطه وحذرتاها قائلتين : « اياك اذا سمعت الناس يتكلمون أن تنطقى » . ثم أخذتاها فطارتا بها فى الجو . فقال الناس : عجب ! سلحفاة بين بطتين قد حملتاها . فلما سمعت ذلك قالت : فقأ الله أعينكم أيها الناس ، فلما فتحت فاها بالنطق وقعت على الارض فماتت . »

فمثل هذه الحارات وحدها هى التى تعمل فى تصفية الود بين الجيران ما تعمله الزجاجة فى تعتيق الشراب . على رأس الحارة تقوم دار داود أفندى – بطل هذه القصة الخيالية –: واجهة طويلة بها الباب على الحارة ، وواجهة أخرى على الشارع ، مع أنها شبر ونصف شبر عرضا ، إلا أنها تدل أن صاحب الدار أوجه وأغنى من بقية السكان الذين لايستطيعون رؤية الزفات والمواكب و « الخناقات » إلا بثنى رقابهم ، وبخطر الوقوع فى يد رجال الإسعاف .

وداود أفندى لو خرج من بين سطور هذه القصة الخيالية وعاش ، لكان الوحيد بيننا الذى يسكن فى ملكه . والمعروف أن له أيضا استحقاقاً فى وقف عن أم أمه أو جد جده ، فلماذا يتشبث بهذه الدار القديمة فى هذه الحارة المسدودة لو كنت مكانه لانتقلت إلى الحلمية أو المنيرة . كلنا نجله لغناه ، و (نستعبطه) لنزوله إلى مستوانا ، ولعلى كنت من بين سكان الحارة ، أكثرهم ارتباطاً به رغم اختلافنا فى السن والمهنة .

كنت إذا عدت لدارى من المطبعة فى صفرة الشمس ، ومررت عليه وهو جالس أمام باب داره ، دعانى لمجالسته وتشبث بى ، كأنه يجد لذة فى أن تصافح يده الناعمة النظيفة يداً صلبة خشنة كيدى .

فى هذه الجلسات تأتى لى أن أنصت أو أحثه على القول حتى وقفت على تاريخ حياته ، وليس فيها – مع الأسف – شىء من الأسرار التى تشرئب لها الأذن . هو من أولاد الذوات الذين ورثوا عن وارثين عن وارثين ، فكان من المعقول أن يفتقروا طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل ، فأصبحوا كالحيوان البرمائى لا هو هنا ولا هو هناك . فهم لذلك أسرع انقراضا . هو بالنسبة إلينا غنى ، ولكنه فى الواقع فقير . ومع ذلك فهو يعتز بأصل لايغنيه فيستريح ، ولا يسلكه فى الفقراء فيريح . . . وماذا يفعل وهو من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ابن عز ؟ فى كرمه وجهله ، فى طيبته مع معارفه ، وازوراره ، بل نفوره ، من الغرباء . تجافيه عن العالم الخارجى فيه تمسك بالماضى ، كأنه يعيش من وراء سد الصين . له قصص شائقة عن تخوت الحمولى وعثمان . بين الحين والحين يخرج علبة بيكاربونات الصودا ويسف منها قليلا دواء لمعدته : هو متأنق لا يأكل إلا أخف الطعام فى أغلب أيامه . وهو ككل أولاد الذوات الذين تربوا فى آثار عز سالف ، وجدت فيه مع الكبرياء والأنفة كثيراً من أخلاق الصبيان وقلة دراية بالحياة فى معتركاتها .

أذكر هذا لأننى كنت جالسا معه فى إحدى الأمسيات ، فرأيت صبى شيخ الحارة قادما علينا ، مجداً فى خطواته ، ساهم النظرة كأنه فى غيبوبة . هو زنجى وأغلب الظن أنه ولد فى بوظة أو كان مهده قرعة . وجه نحس بشفته الغليظة الباذنجانية . وعيونه

المختبئة تحت جفونه المرتخية تبدو كالخرزة الزرقاء لاتفترق عن عيون التيس في جمودها ومكرها . حتى إذا وقف أمامنا أخرج من جيب سترته ورقة صغيرة متسخة وسلمها لداود أفندى . ما هذه ؟ دارت نظرتى خلسة فى لهف حول كتفه ، ووقعت على الورقة ، فوجدت مكتوباً عليها (١٩ أحوال) .

— حضرتك مطلوب فى القسم باكر .

— ليه ؟

لاجواب .

— عند مين ؟

لاجواب .

تحرك الأسود وسار . فعزرائيل لايتريث ليبكى مع أهالى الميت ثم ما كاد يسير خطوتين حتى أفاق لنفسه وعاد إلينا من جديد فأصول اللطمة أن تكون من قلمين ، ومال بوجهه — وجه الوابور — على أذن داود أفندى :

— عمى يرجوك ويرجوك ألا تتأخر .

ثم كان فص ملح وذاب .

داود أفندى قلق ، حائر . بين حين وآخر يسألنى :

— ياترى لماذا ؟ لم أذهب للقسم فى حياتى ، وأشد ما أكره أن أتخطى بابه وأواجه هذا الصنف المسمى رجال البوليس ! أعوذ بالله ! من الذى اشتكانى ؟ هل أتيت جرماً دون أن أعلم ؟

كنت غير ملق بالى إلى همه التافه . ولكنى انتبهت وعجبت من أن كثيراً من الناس الطيبين لا يسلمون فى بعض الأحيان من الوهم والشك فى براءة ماضيهم . ألا أن فى قلوبهم نازعاً خفياً إلى الإجرام فتختلط فى أذهانهم الرغبة بالحقيقة، أم هم يستيقظون فجأة إلى أنه ليس هناك دليل واحد على أن الحياة غير مزدوجة ؟ !

قد يكون الشخص الواحد مع الناس يذهب ويجيء ولكنه لايستطيع أن يكون واثقاً كل الوثوق من أن ليس له فى الوقت نفسه حياة أخرى مبهمة كالأحلام . لايشعر بها كما لايشعر بما حوله من ركبه الدوار : حياة تتصل ، طى ضباب كثيف ، بحياة أشد غموضاً لكائنات أخرى .

كنت أود أن أهدئ مخاوفه وأطمئنه ، لكنى خشيت أن يعود سريعا إلى الحديث الممل العادى الذى شبعت منه ليلة بعد ليلة ، وخفت أكثر أن ينقطع الحديث سريعا ، لأن الكلمة الطيبة قلما تقبل المط . وأحسست برغبة فى البقاء على رأس الحارة وقد طابت الجلسة وشملنا الغروب بسحره . فى كل مرة أنتبه للحظة سقطة قرن الشمس ، أشعر أنها شهقة دوامة تحتضر ، كان انفراجها النهار وانطباقها الليل. فأخذت ــ علم الله لالغرض إلا إطالة الجلسة الظريفة ــ أستثيره وأحرك مخاوفه . ونقلت الحديث من البوليس وفظاظته إلى البلطجية و أفاعيلهم . رئيسى فى المطبعة له شهر

فى الحبس ولا يدرى لماذا . وآخر اتهمه بلطجى بالتزوير ليفرض عليه ضريبة : ولهؤلاء البلطجية حيل لايصل إلى قرارها الشيطان إن وصل : وربما سبقوا بالشكوى ليستولوا على أجر التصالح ... ومن يدرى ! ربما وجدوا فيك ياداود أفندى بطيبتك خير صيد فمدوا حولك حبائلهم . ثم إننى لست مطمئناً إلى (١٩ أحوال) هذه ! ووجه صبى شيخ الحارة ينم عن شر كبير ، ولا بد أنه عالم بشىء لم يرد الإفضاء به إلينا . ولم أقم إلا بعد أن (استوى) داود أفندى ، وبعد أن استحلفنى أن أمر عليه فى الصباح لنذهب إلى القسم معاً .

* * *

لاأدرى هل تأخرت فى النوم عفواً أم أحببت أن أستريح من سهرة الأمس . استيقظت وقد ارتفعت الشمس، فخرجت من الحارة مهرولا كأننى هارب . ومع ذلك تشبث نظرى لحظة وأنا أجرى بباب بيت داود أفندى ، وخيل إلى أن مطرقته — وهى من نحاس على شكل يد مضمومة — تنبسط وتشير بسبابتها إلى ، إلا أن لمعانها ذكرنى سور مقام أم هاشم ، و تعلق المهزومين المرضى والمنكوبين بقضبانه . وانقبض قلبى خوفاً على صديقى داود أفندى . فمن نحس هذا الزمان ولؤمه أن يهان رجل طيب مسالم مثله، ويكون مثلهعند دخول القسم كمثل حيوان أليف آكل عشب

يجد نفسه فجأة فى غابة تعج بكل ذى ظفر وناب . مع ذلك — وهذا شأن الحياة واكتساب الرزق بعرق الجبين وقشف اليدين — نسيته ونسيت أوهامه وأنا منمح مفقود وسط آلات المطبعة وهى تضج وتصطك فى حركات مفاجئة منتظمة كأنها نفضات مقعد محموم . . انتبهت إلى ذكراه وأنا أمام داره فى عودتى للحارة . رأيته فى انتظارى جالسا على كرسيه متلفعاً بعباءته . عندما قاربته حمدت الله أننى وجدته فى حدة وغضب أنسياه خلفى لوعدى . ومع ذلك ما كاد يكلمنى حتى فهمت مع الأسف أن لعبتى بالأمس فى إثارة مخاوفه وتحريضه على رجال البوليس ، قد أدت إلى النتيجة التى كنت أريدها ولا أتوقعها . أستغفر الله، أقصد أتوقعها ولا أريدها. كانت الدعوة إلى القسم فى شأن مخالفة هينة : إلقاء ماء قذر فى الطريق . ومع ذلك كان الجاويش من الفظاظة وقلة الأدب وداود أفندى من الكبرياء وقلة الصبر . بحيث وقعت الواقعة بينهما ثم لم أستطع أن أفهم من داود أفندى ما حصل بالضبط . بكل صعوبة وبعد تردد كبير ، اعترف أن الجاويش هزه هزة أوقعت طربوشه على الأرض أمام عدد كبير من الناس ، بينهم بعض من يعرفونه من أهالى الحى . حاولت أن أخفف حدته ، لكنه قاطعنى قائلا :

— لازم أطلب رد شرفى .

تطلعت إلى عينيه فوجدت فيهما – لا أمارات الغضب ، بل أضواء سعادة كبيرة . أردت أن أقوم بواجبي وأصرفه عن التفكير الكثير فى أمر تافه ، لكنى عدلت سريعا ، لأنى رأيت زورقه قد بدأ يتحرك من المستنقع ليخرج إلى البحر العالى بأمواجه . وانقطع حديثه المبتذل . وأخذ يتكلم لأول مرة كلاماً لايسير على قضيبين مرسومين . خفت عليه أن يعود إلى ركوده وابتذاله ، فهدتنى الحيلة أن أقول له :

– رد شرفك و طالب بتعويض قرش صاغ واحد ! .

قلتها لأنى أعلم أن لهذه الجملة سحراً غريبا يخلب أذهان عامة الشعب و البعيدين عن المحاكم والقوانين . ولعل أكثر الحقائق بريقاً وخلباً للأذهان ما كان أساسها التناقض . فكيف يثور من يغضب للإهانة ، ومع ذلك تنتهى ثورته بأن يثمن شرفه بقرش واحد ؟ أى شرف هذا الذى يقدربقرش ؟ أثرت هذه الجملة فى داود أفندى، وزاد عزماً وإصراراً على الحصول على هذا القرش الواحد .

قضيت معه ليلتين نتشاور فى كيفية رفع الدعوى ، ولكن من من المحامين يمكن أن توكل إليه القضية ويصون أمانتها وقد وقع اختيارنا فى أول الأمر على أفضل المحامين ، ولكنه باتفاق الجميع ليس أعلمهم . أما أعلمهم فليس أقواهم سلطاناً ونفوذا لدى رجال الحكم . وأقواهم سلطاناً ونفوذاً ليس أكثرهم أمانة . وأخيراً

اتفقنا على محام يسكن بالقرب منا ، على الأقل نستطيع أن نتردد عليه كل يوم بلا مشقة . اخترناه ، لا لفصاحته ولا لعلمه ولا لسلطانه ، بل لبخته . نعم لبخته ، فكل من اتصل به يؤكد أن سراً باتعاً يسنده فلا يتولى قضية إلا كسبها . أغلب زبائنه من عامة الشعب الصالحين .

عرضنا عليه الدعوى فأكد أنها رابحة وفى أقرب ميعاد وأن الجاويش سيجازى أشد جزاء وفوق ذلك يعاقب إداريا . وشرب داود أفندى من معسول كلامه ، فتخدرت أعصابه ، ودفع مقدم الأتعاب جنيهين كالحلاوة .

وحددت الجلسه بعد ٤٠ يوما .

وأخيراً ها هو القدر يتمخض بميعاد يفوز به داود أفندى . عمود تلغراف ، لولاه ما شعر راكب القطار بحركته ولابسرعته .

***

دفعته دفعاً وسط الزحام —فهو لحمة— إلى قاعة الجلسة . وأنا متلهف إلى أن أرى كيف يكون موقفه وتلعثمه بين يدى القاضى ومواجهته للجاويش خصمه ثم عدوه . و « انحشرنا » فى مقعد وجلسنا ننتظر دورنا . كنت أتمنى ألا يكون داود أفندى شخصاً من دم ولحم ، بل شخصية وهمية وليدة سطور هذه القصة الخيالية لأنى تألمت وأنا أراه ممتقع اللون مصفراً مرتجف اليدين . جلس

بجانبي كله عيون وآذان وليس منه لسانه . أخذت أراقبه من طرف عيني ، فوجدته كالقشة فى بحر ، ينعكس فيها أقل اضطراب لسطحه علوا وهبوطاً ، ومدًّا وجزرا. اشتمله جو الجلسة من رأسه إلى أخمص قدميه . وشد عليه قبضته فلا يستطيع خلاصا . كل ما يسمعه جديد ، غريب ، رنان ، أخاذ . وأى سحر أقوى من سحر قاعة الجلسة ! صوت الجمهور بين همس ووجوم ، ومحاورات القاضي والمحامين والنيابة تنقله إلى عالم غير عالمه. ثم فجأة وبدون سبب ظاهر يخيم على الجميع صمت عجيب . فيشعر أنه يسقط من علو شاهق وسط الفضاء . ثم من جديد يعود التيار إلى أشده ، وإذا به محمول محلق يكاد يفقد وعيه : القفص ، والجنود ، نداء الحاجب . تلك التعابير القضائية التى تنحنى لها الجباه إجلالا ، وهى ليست إلا ألفاظاً !

لم يحضر المحامى عنا ، ونودى دواد أفندى ونظرت دعواه ، ثم أجلت فى أقل من لمح البصر .

فدفعته مرة أخرى — كالهم الثقيل — وسط الزحام خارج الجلسة . وما كاد يتخطى بابها حتى بلع ريقه لأول مرة . وماذا كان يظن وهو جالس طول عمره فوق الرصيف ؟ لم يثر فى اضطرابه أقل شفقة ، بل شعرت أنه من العدل أن يدفع ثمن تعاليه وابتعاده عن محيط الحياة التى نعيشها نحن المكدودين المتصببين

عرقاً فى زحمة الحياة . ولكنى ما كدت أضع ذراعى فى ذراعه لأقوده إلى القهوة المواجهة للمحكمة ، حتى رق قلبي وملأه عطف وحنان لم يعرفهما لأحد من قبل . وجلسنا وعلى جانبينا موائد اكتظت بوكلاء المحامين وسماسرتهم . وكنت على صلة ببعضهم ، فدعوتهم للجلوس معنا وعرفتهم بصاحبي . ولما افترقنا على رأس الحارة ، لم يقل لى داود أفندى كعادته : « نتقابل هنا » بل قال :

— قابلنى بكرة على القهوة إياها .

دفع داود أفندى جنيهين آخرين للمحامى ليضمن حضوره فى الجلسه القادمة ، كما أرضى الشهود بما وسعه كرمه .

وكنت قد غبت عنه بضعة أيام . ولعلها أسابيع . ولما عدت إليه وجدته على القهوة إياها محاطا بأصدقائه ! ! من وكلاء المحامين وكلهم يحتسى القهوة والشاى . ويدخن النارجيلة على حسابه . وإذا به يشترك معهم فى أحاديث مهنتهم ، وتجرى على لسانه نفس الألفاظ القضائية التى يتمشدقون بها ، بل ويدخل معهم إلى الجلسة فى بعض الأحيان . لما رأيته فى هذه الحال أردت أن أساعده وأوجد له ما يشغله ، فسعيت وعرفته بقريب لى معدم ، منعه فقره من رفع دعوى للمطالبة بملك واسع يظلمه فيه رجل ذو بطش وسلطان . أردت أن أخدم الاثنين ، ويكفينى ثواب المسعى . اتفق معى

داود أفندى على أن يقوم هو بالانفاق على الدعوى فى نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما . وأسر إلى داود أفندي أنه سيرهن مصاغ زوجته ليصرف على الدعوى .

بعد يومين رأيته يحمل « دوسيها » فى يده سائراً مجدا إلى المحكمة . .

***

حدث بعد ذلك أننى نسيت جارى العزيز داود أفندى نسانا تاما ، لأننى كنت قد نجحت فى تحقيق أمنية طالما كتمتها فى صدرى ، ولازمتنى الليالى تنغص على نومى وأكلى وشربى . كنت أريد أن أتخلص من وسط عمال اليومية وألتحق بطبقة الأفندية أصحاب المرتبات الشهرية . فكم أبليت نعلى ، وأحفيت قدمى ، وكم أرقت ماء وجهى وجف لسانى — ويغنى قولى هذا عن التفاصيل — حتى نلت رغبتى ، وعينت حاجباً أمام باب قلم فى وزارة . تخلصت من ماضى الكريه كله ، وتخلصت أيضا من الحارة المسدودة اللعينة ، وسكنت المنيرة .

مضى على فى وظيفتى زمن ، وذات يوم وأنا عائد من سوق الخضار ، وفى يدى قرطاس بلح آكل منه ، مررت على مطعم ، ولشد ما دهشت إذ وجدت فيه داود أفندى جالساً أمام طبق فول مدمس . داود أفندى « بجلبية » وجاكتة ، تجمع أصابعه بلقمة

حبات الفول وتعجنها فى الزيت ، ثم تحملها كتلة واحدة — كالكرة — إلى فمه ، ويتجشأ برائحة البصل الأخضر والفجل . أشهد الله أن قلبي انشرح ، وأنني سررت كل السرور لحسن صحته ولتخلصه من أمراض معدته . وأشهد الله أنني شعرت بموجة شوق قوية تملؤنى ، فجريت نحوه ومددت له يدى مشتاقا يكاد الفرح يقفز من كيانى قفزاً .

— داود أفندى ؟ سلمات ، ازيك !

ولكنه ترك يدى ولم يأخذها ، ولما رفع إلى عينيه لم تستقر نظرته على وجهى حتى رأيتها تمتلىء بأقصى ما تستطيع العين أن تستوعبه من الكراهية والتأفف والبغض . وإذا به يصرخ فى وجهى ويشيح عنى :

— روح الله يخرب بيتك زى ما خربت بيتى !

تملكتنى الحيرة فسمرت فى مكانى . أى جرم أتيت ؟ وماذا فعلت ؟ لاأذكر إلا أننى كنت دائما تحت أمره كأننى عكازه . كنت أجلس منه مجلس الولد من أبيه ، وأترك عملى لأكون فى خدمته ، ولا أذكر أننى خنته أو آذيته أو أضللته.

ولكن هذه المحاولات لم تفلح فى سند سياج كنت أقيمه بكل جهدى طول الوقت ، لتتحصن وراءه نفسى ، ولو لتعيش فى دنيا أوهامها فى حمى من شك خفى بدأ يدب فى قلبى . . .

وإذا بالسياج يُرغمني وينهد ، وتبرز لى من ورائه تحملق فى وجهى كعيون البوم ، تهمة بشعة كالعدم ، قاسية كالقدر المترصد راسخة كالأزل .

(كن طيباً ما أمكنك ، حذراً ما استطعت ، فلن تكون يدك إلا أذى ، ولا قدمك إلا سوءاً) . شعرت فى جسمى ببرودة الموت ، وعشت زمناً أرثى لحالى وأقول : يالى من مسكين ! ولكن سرعان ما أنفت هذه الضعة ، وأعدت نفسى للحياة — والحياة تقوى على أقوى الآلام ! — بقولى لنفسى :

— هون عليك . . . أين فجيعتك ؟ هذه قصة خيالية ، ولكنها ليست خرافة . . .

وهكذا من أول وجديد(١) .

---

(١) كتبته هذه القصة فى مرحلة مبكرة ، وكنت وقتها مشغولا بالبحث عن التجديد في الشكل وليس في المضمون فقط ، ويخيل الى أنى وفقت فى هذه القصة الى علاج الشكل الدائرى ، بمعنى أن تنتهى القصة حيث بدأت . وفى هذه القصة حيلة فنية أخرى حيث يتوارى البطل الحقيقى وراء بطل ظاهرى . فبطل القصة الحقيقى هو الراوى عامل المطبعة وليس داود أفندى .

واهمية هذا البطل فى نظرى انه مثل فى وقت مبكر بعض مشكلات الطبقة العاملة ودراسة لنفسيتهم وتوقهم للالتحاق بالطبقة البرجوازية .

« ى.ح »
(١٩٧٤)

كتاب ثلاثة أيام

هاهو (١) قد تزوج،وها هو يقبل زوجته ، فى كل قبلة يدعو الله أن يرزقه ولداً صالحاً تتجدد من بذرته شجرة أسرة ليست — وهنا العجب — بذات جاه أو ثراء . وجاء يومه المرجو، وسلمته القابلة لفة لها لين العجين ورائحته . وقالت :

— بنت . بنت . هذه نعمة الله . . .

فسماها نعمات .

لم يدرك أن فى أغلب الرجاء طمع ، وأن بعض الدعاء جحود وتدخل فى الملكوت . . . وعاد إلى سؤال ربه فى صلاته وأطال تضرعه فى ركوعه وسجوده .

---

(١) نشرت فى مجلة « الثقافة » ، العدد ١٩٢ ، ١٩٤٢/٩/١ ، ص ١٢ .

وجاء يومه المرتقب ، بين الخشية والأمل ، وسلمته القابلة لفة تتلوى كالحشرة ، وقالت :

— بنت . بنت . هذه عطية من الله :

فسمى الثانية عطيات :

« نعمات » ، « وعطيات » . لم تكن أسماء بقدر ما هي تلميح بأن الرضا عن اضطرار ، وأن خضوع اليوم مرتبط بالرجاء فى تحقيق الوعد غداً . حرك الأب الأبتر كل ما فى قلبه من شعل الإيمان وتوجه إلى الله بكل ما قدر عليه من خشوع ، وكرر ابتهاله وتذلله ، فاستجيب فى يوم دعاؤه . واستقر فى بطن الأم سر الصبي الموعود :

حينئذ مات أبي ، وهو لايعلم أنه فاز بأمنيته : أوفى جهده على الغاية ، وتحقق الغرض من وجوده . وكان ثمن انطلاق السهم تمزق الوتر المشدود . إن سعادة الأفراد لاوزن لها فى تسلسل الأجيال .

وهكذا ولدت يتيما ، ومع ذلك لست بغريب عن أبى : كل مرة أدخل فيها غرفة الاستقبال و تقع عيني على صورته الفوتوغرافية الشاحبة على الجدار ، أراه يبتسم لى ، ويكاد يناديني .

***

ولم أكد أوظف بالحكومة وأقبض أول مرتب ، حتى ماتت أمى ، كأنها لم تقو على فراقنا إلا بعد أن أطمأنت على . وسرت وحيداً

منفرداً خلف النعش . أما شقيقتاي ، نعمات وعطيات ، فقد بقيتا تنوحان وتلطمان الخدود وهما متدليتان من النوافذ. رأيت أكثر المشيعين يتطلعون إلى وجهيهما ونهودهما من أطراف العيون . فى تلك اللحظة استفقت ، وأدركت أننى أصبحت رب أسرة . أية أسرة ! فتاتان جميلتان ، نعم جميلتان ، وإن لم تصح شهادتى . ليس لهما غيرى . قومت من ظهرى المنحنى ، وسرت رافع الرأس ، وتقبلت — على القبر — دون ثورة أو غضب وكره ، عبارات التشجيع والعزاء ، والتوصية بالصبر والرجولة .

***

ثم مرت الأيام ، ودرج النسيان بأذياله على الماضى وأهله ، وإذا بى فى صحبة شقيقتى من أهنأ الناس . ثلاثتنا فى مقتبل الشباب ورونقه ، فى مرحه ونزقه ، فى جريه وقفزه ، فى عطره ونضرته . تساو طليق ، لا تضغطه شيخوخة مولية ، ولا تأخذ بخناقه طفولة هاجمة . من حسن الحظ أننا لم نكن فى سعة تكفى للإنفاق على ثلاثتنا ، فقدم الصبى وحجزت البنتان فى الدار . وكذلك نجاهما الله من الجامعة بآدابها وفلسفتها ، وسلم لهما عقل غير ملتو يضل فى الفضاء ، وطبع غير متكلف . كل منهما نمت أنثى جسما وعقلا : لا يعكر حديثنا نقاش أو جدال . صحبة لم يترك لى صفاؤها مطمعاً .. فمن مثلى من الرجال تحوطه فتاتان — لا فتاة واحدة — بكل ما وسعهما

من عناية وإخلاص ؟ لاتقل ملابسى هنداماً ولا أكلى جودة عن زملائى المتزوجين ، دون أن أدفع ثمن هذه النعمة بالكدر والهم والضيق الذى أتبينه على وجوههم كل صباح فى المكتب . . .

كانت نفسى قانعة وجسمى سعيد . نعيش متلاصقين كصغار القطط وهن عمى . حلقتنا كاملة : هذه نعمات لبسها دور الأم الحنون فلبسته . هى أكثرنا رزانة واتزاناً . فى يدها مصروف البيت وتدبير خزينه . وبقيت عطيات « دلوعتنا الشعنونة » التى من أجلها نحرص — فى خفية منها — على تذكر أقل رغبة لها ترد عرضا فى سياق حديثها ؛ وننتظر إلى أن تحين الفرصة فنجد أكبر اللذة فى تعب البحث عن طلبتها ، وفى التحايل على كتمان أمرها ، إلى أن تعثر عليها فى تمام مناسبتها ، فنضحك معها لدهشتها ، ونشاركها الفرح بهديتنا . . وفى بعض الأحيان أضع رأسى على ركبة عطيات ، فتعبث بأصابعها الطويلة فى شعرى كأم القرد تفلى رأسه وتناغيه . . بجانبنا نعمات تغمرنا بابتساماتها الحلوة ، وهى تخيط لى بعض ملابسى الداخلية . لو تركنا لأنفسنا لعشنا سعداء فى هناء يكمل بعضنا بعضا . ولكن كيف يتأتى ذلك ، وفى الناس إخلاص ومحبة ورغبة فى مساعدة الغير ، وتطوع لعمل الخير والتحريض عليه ! !

بدأ أقاربى ومعارفى يهمسون لى : « متى تزوج أختيك ؟ لقد آن الأوان ! » . ثم فى مرة أخرى : « كيف تأمل أن تعثر

لهما على زوج صالح ، وأنت قابع فى داركم القديمة المختبئة بدرب الحجر من وراء حارة التمساح لاتزور ولا تزار . . . أم تراك معتمداً على الخاطبة ومقالبها ؟ » .

أخذت وأنا خائف أتطلع إلى عيون شقيقتى على غفلة منهما وأسأل نفسى :

– هل هذه عيون ظامئة جائعة ؟ .

خيل إلى فى بعض الأحيان أن نظرتهما الناطقة تخرس فجأة وتشرد فى الفضاء ، وأن تحت وشى هذه النظرات الجميله يختبىء قزم من الحزن والحرمان : له عين البوم ، وأسنان الفأر ، وعناد الثور ونزق الجدى . . .أيها الشيطان الأسود ! مهما تراوغ فلن تخفى على بعد الآن ! .

سهرت الليل أفكر . وأنار الفجر ظلام الليل وبصيرتى فاستبانت لى الحقيقة على ضوء النهار ، جسداً عارماً قبيحا عاريا قوى العضلات . لافائدة من مغالطة الطبيعة . ولابد من التضحية وتحمل الوحدة والصبر على مرارة التسليم والانسحاب . . رسمت لنفسى برنامجاً ، وصممت على تنفيذه دون استشارة أحد ، حتى شقيقتى . لن ألجأ إلى الأقارب ، فهم – كما يقول المثل – عقارب ، ولا إلى الخاطبة ، فهى سمسار بين عجزة . أليست المشكلة أن الزوج الصالح لم يأت إلينا ؟ إذا فلنبحث عنه ، ولنذهب إليه ، وفى موطنه ، ولو أدى الأمر

إلى أصطياده احتيالا . سأعد الشبكة الماكرة بنفسي ، وألقيها في طريقه بيدي . هذا صيد حلال . وأي شيء أعظم ثوابا عند الله من تدبير زوج صالح لأعز الناس علي ؟

بعت بعض الحلي، وسحبت كل نقودي المودعه بصندوق التوفير، وأجرت شقة كالحق — ولكنها غالية علي ! — في جاردن سيتي، واشتريت لها بعض الأثاث من معارض سليمان باشا . عن إذنك يادرب الحجر ! لقد ألغى الرق فاعتقينا لوجه الله ! وأنت أيتها الصناديق والشكمجيات ، وأنت أيتها الشمعدانات والمرايا المذهبة، وأنت أيتها الكنبات والمقاعد المطعمة بالصدف، منك إلى صالة المزاد خطوة مباركة ! وداعاً ، وداعاً . فنحن في دار كل مقام فيها قصير ، وكل صحبة إلى فراق . أتنتظرين أن أرثيك بدمعة؟ من تلفت إلى الماضي لم تكفه دموع الخنساء! أتسألينا البكاء ؟ بل اسألينا النسيان ، والنسيان السريع .

ولما دخلت العمارة ، قام لنا بوابها : بربري له وقار القديسين وهيبة الأباطرة ولما دلفت إلى المصعد بعد سلالم قليلة فرشت بالبساط وزينت بأصص الزهر ، ولما سمعت الوكيل يقول : « هنا الأنتريه ، وهنا الأوفيس » — اطمأن قلبي، وقلت : قد أحكمت الشبكة ، فلننتظر صابرين ، وعلى الله توكلنا . . .

***

عشنا غرباء زمنا ، ثم بدأنا نألف الحى وأصواته ، ووجوه سكانه وعاداتهم . خرجت من الشقة ذات صباح فاذا بى أواجه صاحب الشقة المقابلة خارجاً بدوره . واحتوانا المصعد معاً . لاأدرى لماذا اطمأن قلبى إليه . ابتسامة منى — وكنت أنا البادىء ، وابتسامة منه ، وصلت الحديث بيننا . هو موظف كبير ، على المعاش . دعوت الله أن يكون له ابن صالح ، أو ابن أخ ، أو ابن أخت ، أو صديق أو معرفة ، وقلت : لعلهم إذا رأوا أخلاقنا وشرفنا ، وخبروا أحوالنا واستقامتنا ، تقدموا بالخطبة . دعوته لزيارتنا ، فإذا به — لشدة دهشتى — يقبل بسهولة . جاء وزوجته ، سيدة نصف ، حنت على أختى حنو الأم الرءوم . دعتنا لشرب الشاى عندهم وقالت وهى تنصرف :

— عسى أن تكون ابنتى سنية قد عادت من الإسكندرية فأقدمها إليكم .

حاولت ألا يظهر غمى على وجهى . كنت أنتظر أسماء رجال لانساء . وقلت فى نفسى : « فلتكن زيارتنا الأولى هى الأخيرة ، فلم أجىء هنا من أجل التزاور مع أسرة ليس لديها رجال »

وذهبت فى الموعد المضروب ، وأنا متحرج ضيق الصدر . .

وجاءت سنية أيها الناس ! لا تبخلوا على بكرمكم وطيبتكم .

أشفقوا على شاب قليل الخبرة والتجربة مثلى ، ولا تبتسموا إذا وصفت لكم اضطرابى أمامها وحيرتى .

ماذا أقول ؟ كان اللقاء هو بدء تاريخ حياتى . ما قبله جاهلية معتمة . وما بعده نور وإشراق ، أحدثها وأسارقها النظر. وإلا كيف تقوى عيناى العاشيتان على مواجهة هذا الجمال كله ؟ كنت بجانبها كالجرو المبتل يوضع فى الشمس . . ما كنت أدرك قبل رؤيتها أن اللباس من الفنون الجميلة . . كأن جسدها تمنى فكان ثوبها تحقيق أمنيته ! وكأن الثوب نفسه اشتهى ، فكان هذا الجسد خليلته التى وجد لديها السكينة وطعم الحياة . . . ثوب كم أبدى وكم أخفى ! استدار عليها يكاد يأسرها ، فإذا أسيرته طليقة تتحكم فيه . هابط إلى أن يقف حيث يتأرجح الذيل بين الكتمان والإفصاح .. وحذاء تغنيك أناقته عن التساؤل عما يداريه . كل شعرة فى رأسها معها تسابقت إليها و اصطفت راضية بجانب أختها ، أو التفت معها أو من تحتها ، عالمة أنها تشارك فى زينة ، سعيدة ناعمة بالدور الذى رسم لها . لو تهشم هذا الجسد وتفتت ألف كسرة ، لما خدش جماله . وضحكت فأسمعتنى ضحكة تختصر العمر كله . فيها سذاجة الطفولة ، ومرح الصبا ، ومرارة التجربة . . فم منهم وعيون بريئة . . . لم تهتم بى كثيراً . وما وجهت إلى غير نظرة أو نظرتين . ومع ذلك عندما انصرفت — وأنا أجر رجلى جرا — كنت شاعراً بتعب من جس دقيق تناول روحى وجسدى

بأصابع توهم أنها تمسح وتربت ، وهى تندس وتنقب . . .
شعرت أننى عريت وقلبت ظهراً لبطن ، وفحصت واختبرت :
قيست قامتى ، وسبرت . وزنت وكيلت . عركت وعضضت
بالأسنان ، ورننت على الأرض . . حركت أوتار روحى واستمع
لموسيقاها . . ثم استخرج من مخبئه كتابى الدفين ، فروجعت فى النور
صفحاته ، وقرئت سطوره كلمة كلمة . كل هذا والعيون مترددة ،
والشفاه مستفهمة . . ثم أصدرت حكماً لن يكون له نقض ولا
إبرام ، إلى آخر حياتها وحياتى .

أيها الناس ! أشفقوا على مرة أخرى . ولا تبتسموا من جديد
إذا قلت لكم إننى تعبت حقاً ، ولكنى مع ذلك وجدت فى هذا
التعب لذة كبرى . . لم أخش حكمها . بل سرنى أنها تناولتنى
بالفحص . كنت كالمريض لايسعده أمل الشفاء ، بقدر ما يسعده
تقلبه بين يدى طبيب مدل ممتنع وراء أجر باهظ . . انصرفت
وأنا لا أزال ألوك فى فمى لذة مذاقها . . ولما دخلت شقتنا ،
حانت منى التفاتة إلى أختى ، فقلت فى نفسى – والأسى يملؤها :
« ما ينقصهما والله إلا أن تطول الضفيرة ، ويغطى الجورب السميك
الركبة . لتبدوا شابتين من الريف . . . من غد إن شاء الله ،
سأعنى بتوجيههما إلى الاعتناء بهندامهما وزينتهما ، وإلا كان
فشل برنامجى المرسوم محققاً » .

ولكنى فى غد نسيت كل شىء إلا سنية ! حاولت أن أجد مسوغاً

لتكرار الزيارة فلم أوفق، بل وجدت باب الشقة موصداً فى وجهى . ألأنهم رأوا لعابى يسيل وأنا أحدق فى ابنتهم خلسة، فرثوا لحالى وأرادوا تجنيبى التملق بسراب؟ لما شعرت أنهم يتعمدون صدى زاد هياجى ، فإذا بى – وأنا المعروف باتزانى وأدبى – أفقد كل سيطرة على نفسى ورأيتنى ، لشدة دهشتى ، آتى بحركات وتصرفات لاتصدر إلا عن أطفال أو مجانين . حاولت أن أستعين برشوة الخدم ، فضحكوا منى . تصديت لها فى الطريق . ألقيت أمامها رسائلى . تتبعتها كظلها . كل هذا وهى لاتتكرم على بكلمة أو بابتسامة . أقسم لكم أننى لاأدرى كم من الزمن مر على وأنا فى هذه الحالة . قد يكون أسبوعاً وقد يكون شهرا . وأخيراً ضاق ذرعى ، وأحسست أن العذاب لوطال لقصفنى الألم ودمر قلبى وقضى على . هجمت عليها ذات يوم وهى سائرة وأمسكتها من ذراعها . لمسة فيها رعشة الغيظ والأمل ، وقلت لها صارخاً :

– ماذا تظنين ؟ أجرى وراءك طول العمر ؟ أليس لى عمل فى الدنيا إلا أن أسير فى ركاب حضرتك ؟ العفو ! الآن أريد كلمه واحدة : نعم أولا .

فنظرت إلى وابتسمت . .

زرت معها معالم القاهرة ، فكأننى سائح يجوس خلال مدينة مجهولة ساحرة لم يكن يعرفها من قبل . . . كنت أتلو كالببغاء

قصيدة النيل ، فشرحتها لى سنية بيتاً بيتا ، وأفهمتنى جمال معانيها ولفتاتها : فى حديقة الحيوان – التى طالما زرتها فلم أجد شيئاً – كلمتنى لأول مرة ، من وراء أعمدة السجن المؤبدة ، عيون صافية جملية حزينة ، وشكت إلى وحدتها وآلامها : الفضل لسنية فى الراحة الكبرى التى شملت نفسى عندما آخيتهم جميعاً .. من زحف منهم أو طار ، أودب على أربع . . .

قالت لى ذات يوم :

– ما العمل إذاً ؟ إن بابا يرفض بتاتاً ، لأنك موظف صغير ومرتبك قليل ، ولا يدرى كيف تقوى بهذا المرتب على المعيشة فى جاردن سيتى . . .

ولما رآنى مطرق الرأس غماً أضافت تقول :

– ولكن ماما فى صفى . . .

وكان القرار أن أنتقل إلى مسكنهم ، على أن تذهب نعمات وعطيات للإقامة مع إحدى خالاتى . . .

كلهم قالو لى إننى ساعة « كتب الكتاب » كنت شارد اللب ، ثم إذا بى فجأة ابتسم ابتسامة خفيفة ، ظنوها من حرج سؤال المأذون الصريح . لايعلمون أننى – ولا أدرى كيف – انتبهت إذ ذاك فحسب ، إلى قسوة الفكاهة ، وهى تنطبق على ، فى المثل القائل :

« راح يصطاد . . . صادوه . . . »

کیکھ

« ما معنى (١) هذه الحياة ؟ »

ينخر هذا السؤال كالسوس فى نفس حسين فوغلى كل ليلة وهو خارج من القهوة بعد أن كوموا مقاعدها وأطفأوا أنوارها يخف إليها قبل الغروب، فيجد زملاءه المدرسين قد اجتمعوا حول (الطاولة) ويدور اللعب بينهم – لا ينقطع لحظة واحدة – كالمعارك الحربية فى غليانها وقعقعتها . يتساقى اللاعبون كئوساً مترعة من رحيق الفوز ومرارة الهزيمة، فينهلون من وهمها ويسكرون. حسين لا يلعب بل يكتفى بتتبع الحجارة والزهر بشغف كبير : يلتوى رأسه ذات اليمين وذات اليسار ، كعروس ميكانيكية انفلت

---

(١) نشرت لأول مرة مع المجموعة ، يونيو ١٩٤٤ .

ضابطها . وهكذا هو أيضا فى الحياة يعيش على هامشها ، ويلوذ بالشاطىء خوفاً من تيارها . عواطفه موزعة ، تارة مع الغالب ، وتارة مع المغلوب . فالمحايد المحروم من لذة المشاركة فى الصراع يتسلى بمقدرته على الموازنة بالعدل والقصاص . إذا دار الحديث فعن العمل والوظائف والدرجات ، حتى كأنهم الإبل ، يجترون بالليل ما أكلوه بالنهار . . .أى عقل شيطانى تفتقت حيلته عن اختراع هذه الطاولة » ؟ هى لعبة ساذجة متشابهة متكررة ، ومع ذلك لاينقطع سحرها كأنها الحشيش أو الأفيون .

خرج حسين من الجو المكتوم المفعم بالأدخنة والضجيج ، وانطلق إلى الطريق. فوقه سماء القاهرة تكاد الروح ترشفها من فرح صفائها . تناثرت فيها نجوم لامعة وأخرى خابية ، لايكاد النظر يستوعبها فى مواقعها ، حتى تجد الأذن أن هذه النجوم المبعثرة مختلفات الألوان ينظمها نغم حلو جميل . لكل لون منها نصيب فى إيقاعه ، ولكنه نغم خاف تشعر به الأذن ولا تتبينه ، كأنما هى أيضا عين ترى ولا تسمع .

وبدأ حسين سيره إلى شبرا . وهو حين يشعر بالليل يحجبه عن الأنظار ، يلذ له أن يحتضن أفكاره ، ويختلى بها ، فيسرح ذهنه ، وتعود إليه ذكريات قديمة . عيناه تتكلمان تارة بالسرور وتارة بالحزن . ويهتز رأسه مرة بالعجب ومرة بالحسرة . وقد

يتمتم باسما . وقد تحدث شفتاه هذه « المصة » الضئيلة التى يعبر بها المصريون عن بعض ما فى قلوبهم من توجع وعطف ورثاء . .

آه إنه الليلة آسف على حياته ، نادم من جديد . أما يأتى اليوم الذى يتاح له فيه أن ينسى كيف ألقى بنفسه فى مدرسة المعلمين وهو كاره لها ؟ وكيف نكص عن الزواج بجارته آمال ! تلك الفتاة التى خلبت لبه وسحرته ، ورضى بالزواج من إحسان . . خشى الأولى لأنها مستبدة لعوب فاتنة ، وقنع بالثانية لاعن حب ، بل قياماً بواجب ، فهى ابنة عمه . . . اطمأن لها لأنها ربة بيت ، هادئة ، معتكفة ، فماذا فعلت بنفسك ياحسين ؟ أدرت ظهرك للنشوة والمتعة ، واللذة المتجددة ، والحياة المليئة بالعواطف ، وآثرت حياة راكدة كالمستنقع . سرعان ما مل إحسان ، وسرعان ما انقلبت هذه الفتاة الممشوقة القد إلى امرأة بدينة خشنة اليدين . لم يرها مرة تستقبله عند عودته وقد سرحت شعرها أو اعتنت بزينتها . تبدو له الآن حياته سلسلة من أخطاء وسوء حظ . إن كان فى الحياة مهنة يمقتها أشد المقت فهى مهنة التدريس . هو عامل فرض عليه أن يبنى الأساس ولا يتعداه ، ثم يجىء آخرون يتممون البناء ويتمتعون به . . أى لذة فى عمل لاتتجسم أمامك نتائجه ، فتمنح النفس جزاءها من الرضا والغبطة ! ؟ .

ما فائدة التوفر على تعهد الفرخ وتغذيته ، حتى إذا نما ريشه

أفلت من يدك وطار ؟ العالم كله يتحرك إلى الأمام، والمدرس ثابت فى مكانه ! وإن تلفت فإلى الماضى يتلفت . . . مافائدة تعليم هؤلاء الصبية، وهو واثق بعجزه عن إسعادهم ؟ فالحياة مليئة بالشراك والمصائد ، محفوفة بالمظالم والآلام والأحزان . سيخوضون غمار معركة من أشد المعارك تطاحناً وهولا ، على حين أنه لم يسلحهم إلا بقشور من العلوم النظرية . وشقشقة لسان إن لم تكن تضر فهى لاتنفع . كم كان يود أن يكون محامياً . إنه يحس فى نفسه المقدرة على الفهم واستخلاص المبادئ وسلامة المنطق . — وهذه مواهب لا تفيده فى صناعة التعليم . ولكنها خليقة أن تتقدم به إلى الصفوف الأولى ، لو أنه مارس المحاماة . ود حسين لو أنه استطاع أن يدافع يوما عن مظلوم ، أو يرد حقاً إلى صاحبه . . ولكنه عاجز . فمما يكرب نفسه أنه يرى المظالم تتزايد أمامه وتتلاحق ، ولا أمل له فى أن يرى نهايتها، أو يرى عالما تسوده العدالة . هذا تفسير مافى نظرته من حزن عميق مختلط بغيظ مكتوم .. . ماذا يفعل ؟ إنه يقف طول النهار ينبح أمام تلاميذ كالقرود يلهون ويعبثون ، حتى يجف حلقه ويضطرب قلبه . هل نسى أن الطبيب قال له إن قلبك ضعيف يخشى عليه من كثرة الإجهاد ؟

وعندئذ تريث حسين فى سيره ، ووضع يده على مكان قلبه وتأوه . . . إنه يحس كأن إبرة تغرز فيه . . . لقد ساءت حالته الليلة إنه الإجهاد الذى يخشاه . . فمتى تأتى الإجازة ؟ متى ؟

كان قد ترك الطريق الرئيسى وانعرج إلى درب ضيق ينتهى بالمزارع . . سكون شامل ومنازل نائمة . .

حدثته نفسه :

— لو أستطيع أن أرتد القهقرى عشر سنوات . . عشر سنوات وحسب . . ولو ضحيت من أجل ذلك بعشر سنوات مثلها من مستقبل عمرى . . سنة بسنة . .

لم يكد يسير بضع خطوات بعد هذا الخاطر ، حتى خيل إليه أنه يسمع زحيراً شديداً يتلاحق من ورائه. هل يجرى فى إثره أحد ؟ أجهد أذنيه فلم يسمع وقع أقدام . ومع ذلك استمر هذا الزحير يسرع إليه ويدنو منه . طمأن نفسه يقول لها : لعله وهم وخيال . فالليل عالم مجهول ملىء بأصوات غريبة لانتبينها . . ثم سار قليلا فإذا يد تلمس كتفه ، والزحير يكاد يشق صماخ أذنيه . . سمع حسين وقرأ أن شعر الرأس يقف عند الذعر ، ولم يكن يصدق . فى تلك اللحظة أحس كأن يداً قاسية جمعت شعره فى قبضتها وشدته شدا قوياً يكاد يتمزق منه جلد رأسه . وشعر حسين بأن اليد التى وقعت على كتفه لوح من الثلج . فقد جمد لها قلبه ، وإن يكن جبينه قد التهب لها وتصبب عرقاً . . .

التفت حسين مذعوراً ، فوجد وراءه رجلا نحيفاً هو إلى القصر أدنى منه إلى الطول . يرتدى ثوبا أسود كثياب التشريفات ، من

طراز يرجع إلى عهد غابر ، ذكر حسيناً بصورة قديمة لأحد جدوده .. والغريب أن هذا الثوب كان فضفاضاً كأنما فصل لرجل أطول منه وأشد امتلاء... فقد رأى حسين أمامه رقبة نحيلة تائهة فى بنيقة منشاة واسعة... يريد ذقنه أن يعتمد على حافتها فيشنقها فرط ارتفاعها . . . لم يرله يدين ، وخيل إليه أن الكمين فارغان ، لمس فيهما ذراعان . حدق بنظره فى تقاطيع هذا الغريب . ورأى — أو خيل إليه أنه رأى — وجهاً إنسانياً ذا عينين وأنف وأذنين . . . ولكن عجباً لماذا لا تستقر نظرته على هذا الوجه ؟ لم تنطبع له صورة فى ذهنه ، كأنما وجهه هوة لولبية ، أو سراديب ملتوية أو صورة فوتوغرافية مهزوزة . . .

أشاح حسين بوجهه من الرعب ، ومن تلك الرائحة المنتنة القاسية التى غمرت وجهه من فم هذا الغريب . وحين بدأ الرجل يكلمه ، إذا صوته صوت طفل وديع ، وإذا هذا الصوت الحنون وحده يراخى قبضة اليد التى كانت تجذب شعره فيعود إلى رقاده . . وخامر قلبه شىء من الطمأنينة لم يدر سببها . قال له الرجل :

— لا مؤاخذة ياسى حسين . . . خشيت أن تغير فكرك قبل أن أستطيع اللحاق بك . كنت مشغولا جدا فى القصر العينى وفى مستشفى الحميات . . فأنا — كما ترى — مجهد حقاً ولى عمل شاق لا ينتهى . . سمعتك تتبرع بعشر سنوات من عمرك لقاء أن تعود

القهقرى عشر سنوات مثلها ، وأنا فى ضيق علم الله — ومحتاج أشد الاحتياج إلى يوم ، فكيف بعشر سنوات مرة واحدة .

— لاشك أنك سعيد فى حياتك . فلم أر قبلك أحداً يتعلق بالدنيا تعلقك بها . .

— لا . لا . لا أريدها لنفسى ، بل لغيرى . . دعنى أتذكر . نعم عندى أب قارب الرحيل ، وقد قدر له أن يرى ابنه الوحيد الشاب يموت قبله . سأعطى الابن شيئاً من هبتك حتى أجنب أباه تجرع غصة الألم . وهذا الشاب لو انتقل عن هذه الدنيا لحرم أولاده من ميراث جدهم . سأعطيه سنة حتى ينتهى أجل أبيه . . وهذا الفتى أحب فتاة غاية الحب ، سيموت قبل الزفاف — وليس أشهى على من أن أمتعه بها ولو شهراً واحداً . فها أنت ذا ترى أن هبتك السخية تكفى لبعض هذه الأعمال الخيرية..لهذا أسرعت إليك .

خفت الأبخرة المنتنة شيئا فشيئاً . . واستطاع حسين أن يقارب وجه هذا الغريب . . . بل بلغ به الاطمئنان أن ضحك فى وجهه وقال :

— مهلا ! مهلا ! هذه هبة كما قلت ، ولكنها — ياعزيزى الأستاذ — ليست بدون مقابل . . . فهل أنت قادر على أن تردنى القهقرى عشر سنوات ؟

انتبه حسين إلى أن جوا من الطيب والرائحة الذكية تسطع من مخاطبه . . . وتمنى لو استطاع أن يقترب منه أو يضع ذراعه فى ذراعه . . .

أجابه الرجل وهو يبتسم :

ـ ألم تقرأ فى القرآن الكريم « ادعونى استجب لكم » ؟

إننى عبد من عباد الله لا أعلم أن أحداً قد كلف بمهمة شاقة كمهمتى . . . وأنا مقبل على أدائها بإخلاص وبكل قوتى . . حرصاً على رضى مولاى . . . وإنى ، لحسن الظن بكرمه ومنه ، لم ألتمس منه طلبا من قبل . . . فلا أظن أنه يخيب رجائى لو سألته هذه المرة . . . كن واثقاً أننى أحقق لك ما ترجوه . . .

ود حسين لو أنه تردد قليلا ، أو سأله مهلة ليفكر من جديد ولكنه خجل من رقة محدثه ، فوجد نفسه يقول له وهو ذاهل . . .

ـ لا مانع عندى . . .

ـ يالك من سخى شجاع . . .

وعندئذ أخرج حسين ساعته ونظر إليها فأوقفه الرجل قائلا :

ـ لا . لا . إننى لا أعرف حساب زمنكم هذا . » »

ثم التفت إلى السماء ونظر إلى النجوم وقال :

ـــ سيكون بدء تنفيذ اتفاقنا فى تمام منتصف الليل .

قال له حسين :

ـــ اتفقنا . . .

أجابه الرجل :

ـــ هذا القول لا يكفينى . . . إننى أريد منك أن تهبنى السنوات العشر بالصيغة الشرعية . فقل معى :

« أهبك عشر سنوات من عمرى طائعاً مختاراً ، وأنا فى تمام عقلى وإرادتى ، على أن أعود القهقرى عشر سنوات مثلها »

كرر حسين وراءه الصيغة كلمة كلمة ... فإذا بالرجل يربت على كتفه ويقول :

ـــ إنك أكبر المحسنين لوعلمت . وليس أحد أولى منك بأن يقام له تمثال . . .

ثم ابتعد عنه ، يتحرك جسده ، ولا يرى حسين على أى قدمين يسير . . .

واستمر حسين فى طريقه وهو ثمل لا يدرى هل يغتبط بفعلته أم يندم عليها . همس لنفسه يقول : « إنك أسعد إنسان على وجه الأرض ! ستقوم برحلة لم تتسن لأحد من قبلك » .

وفجأة وقف حائراً وقال :

— ولكنى نسيت أن أسأله هل سأعود القهقرى عشر سنوات محتفظاً بما فى من تجارب وأفكار ومن خبرة ومزاج . . . ليتنى أدخلت هذا الشرط فى اتفاقنا !

عشر سنوات إلى الوراء ! سيغير حياته كلها . . . سينعم بما حرم نفسه منه . . . سيتجنب كل أخطائه . تألق وجهه وأسرعت خطواته ، وأحس أن نشوة غريبة تهز عطفيه . . فإذا به يقف من جديد وقد ساوره شيء من القلق :

— ليتنى سألته كم يبقى لى من العمر بعد تبرعى بعشر سنوات ؟

كان قد وصل إلى داره وفتح باب الشقة ، فإذا رائحة المرحاض تزكم أنفه مختلطة بعفونة قشور البصل المتخلف فى صفيحة القمامة .

اعتاد حسين ، إذا عاد فى مثل هذه الساعة ، أن يجد شيئاً من الطعام على المائدة فيتناوله بارداً وهو صامت ، وزوجه نائمة لا تتحرك . . . ولكنه فى هذه المرة لم يكد يدخل حتى سمع صوت إحسان تنادى :

— من ؟ حسين ؟

وقامت إليه محمرة العينين ، مشعثة الشعر تقول :

ــ عجباً ! ما كدت تدخل حتى طار النوم من عيني وانتبهت مذعورة لا أدري ماذا بي .

جلست معه على المائدة وسخنت له طعامه ، وحدثته عن بعض توافه يومها ، ومع ذلك كان كلامها ينزل بردا وسلاما على قلبه . . . هي زوجه ، وليس في حياتها أحد سواه . حبيسة داره ، حياتها كلها وقف عليه وعلى أولاده . كثيرا ما اشتكت وثارت وضجت ، ولكنه لم يسمعها تؤلمه بكلمة تجرح قلبه . . . حن لها حسين وضاحكها ، بل عرض عليها أن يسهرا معاً ويتسليا بلعب الكونكان . . . وهي لعبة الورق الوحيدة التي استطاع أن يعلمها لإحسان .

واستمر اللعب زمناً طويلا .. . وتناول حسين ورقة يربح بها الدور . . . فرفع يده مسروراً يقول :

ــ كن . . .

ولكنه لم يستطع أن يتمها (كونكان !) كان الليل قد انتصف . . . .

***

دخل عليه وكيل المكتب يقول :

ــ السمسار منتظر يريد أجره .

أطرق حسين برأسه ذليلا . لقد انحدرت به الحال إلى أن أطلق بعض السماسرة يتصيدون له الزبائن من على القهاوى . . . لم يبلغ إيراده فى هذا الشهر عشرين جنيهاً ، وإنه والله ليخشى أن يعود إلى داره ، فقد طالبته آمال بثوب جديد لا يقدر عليه . . . من كان يظن أن فتنة هذه الفتاة ستزول سريعاً ؟ عاشرها وتمتع بقربها ، ولكنه يشعر أنه ظل طول عمره غريباً عنها . لا يدرى ما يجول برأسها . . . يريد أن يخضعها فلا تخضع ، ويأمرها فتنفلت منه طليقة . . . ثم كم تؤذيه ويؤذيها بهذه الكلمات القاسية الجارحة التى يتبادلانها كثيرا . . . ثم — وهنا العجب — يضمهما الفراش فينسيان كل شىء فى ضمة الجسد للجسد . وتعود العداوة والبغضاء فى الصباح . . . طبيعة حيوانية يتعامى الإنسان عنها ويتعالى ، وهو عاجز فى قبضتها ، غريق ، فى أحضانها : ترى أين إحسان الآن ؟ ألم يكن أولى بها — وهى ابنة عمه — من زوجها العامى الذى لا يحسن معاملتها ؟ ألم تكن راحته وسعادته فى الزواج منها ؟ ولكنه تكبر وخان ، وجرى إلى آمال كالأحمق . . .

وسار حسين على مهل إلى داره . . . المحاماة ؟ هى مهنة مليئة بالكذب والخداع . كم يتألم ضميره وهو يصرخ أمام القاضى بكلام يعلم من قرارة نفسه أنه كذب وتلفيق . . . كل ذلك لقاء دراهم معدودة لا تسمن ولا تغنى من جوع . . .

آه ! آه ! إنه أضاع حياته . وما فائدة جهاده فى المحاماة والناس كالوحوش الضارية والذئاب المفترسة ؟ إن اكتسى وجه الظالم بغلالة سوداء بغيضة ، فما أجدر المظلوم الأنوف بأن يرفع رأسه ويتجلى وجهه أبيض وضيئاً . . . ولكن حسين يتطلع إلى وجوه زبائنه فلا يتبين الظالم من المظلوم . . . كل منهم تنطوى نفسه على الغل والحقد . لا يكتفى الظالم بجبروته ، بل يهبط به جبنه إلى الدس والكيد والتلفيق .. . وعمى المظلوم عن نبل المطالبة بحقه وثوابها ، وامتلأت نفسه سما . لا يرضيها استرداد الحق بل الانتقام بأى ثمن من الخصم — ولو ظلما ! كم كان يود أن لو اشتغل بالتعليم ، لتكون براءة الطفولة الساذجة هى مادة عمله ، وليساهم فى بناء جيل صالح ينشأ على الأخلاق الفاضلة ، تبدأ به مصر حياة جديدة .. . وهل هناك أنبل من وقفة المعلم أمام صف من الصبيان ، يتطلعون بعيونهم المتعطشة إلى كل حركة تصدر منه وكل كلمة تخرج من فمه ؟ هذا هو البناء الذى يرضى النفس . وأى مهنة أخرى تهيىء لصاحبها مثل هذه المتعة الروحية ؟ أما الآن فانه يجاهد فى المحاماة جهاداً زائفاً مضيعاً . . . أحقاً إنه يعمل لرد الحقوق إلى أصحابها ؟ إن صح هذا — وهو غير صحيح — فما فائدة تعمير البناء والأساس فاسد مختل ؟ إنه يحس فى نفسه القدرة على الصبر والتؤدة والتبسيط . وهذه صفات توحره فى

المحاماة ، ولكنها خليقة أن تدفع به إلى الصفوف الأولى لو أنه مارس التعليم .

قابلته آمال غاضبة تقول :

– لا أراك إلا والليل متقدم . . . وما أظنك غبت فى هذا المكتب المبارك وهو أفرغ من فؤاد أم موسى . . . أكبر الظن أنك كنت مع صحبة السوء فى لهو وعبث .

– كيف أرضيك يا آمال ؟ ألا ترينى متعباً ؟

وضع حسين يده على قلبه وتنهد .

– إن الأزواج ليرجعون إلى البيت فيحدثون أزواجهم ويلاطفونهن ويتسلون معهن . . .

– وماذا تريدين ؟

لوت خرطومها وتركته .

سار وراءها ذليلا يقول :

– آمال ! تعالى . تعالى نلعب الكونكان معاً ، فأنا مهموم أريد أن أتسلى . . .

بلغ من ضعفه بين يديها أنه لايجسر أن يمن عليها بما يفعله لإرضائها . . فكل خدمة منه لها يصورها خدمة منها له . . .

واستمر اللعب زمنا ، وتناول حسين ورقة يربح بها الدور فرفع يده بها مسروراً يقول :

– كن . . .

ولكنه لم يستطع أن يتمها « كونكان » ..

انشق الجدار وخرج إليه منه رجل غريب ، ولكنه ليس بالغريب عنه . هو أقرب إلى القصر منه إلى الطول . مال بوجهه الزكي الرائحة على حسين يقول :

— ياسي حسين ! هل أنت ذاكر ؟ لقد نفذت عهدى من الاتفاق . أليس كذلك ؟

ابتسم له حسين ابتسامة ملؤها الاطمئنان والود والإخاء وقال :

— تمم حديثك ولا تخف عني شيئا . أكاد أفهم الآن كل ما كان غامضاً على . . .

— نسيت أن أخبرك فى ساعة اتفاقنا أنه لم يكن لك عندئذ من بقيه العمر أكثر من تلك السنوات العشر التى تبرعت بها . . فهل أنت مستعد ؟ .

أسبل حسين جفنيه ، وخفق قلبه ومال عليه وجه سمح مترعج يقول :

— حسين ! حسين ! مابك ؟ .

— من أنت ؟

— أنا إحسان ! ألا تعرفنى ؟ لقد كنت أمامي منذ لحظة سليما معافى . فماذا بك ؟ هل يؤلمك شيء ؟ رد على ! أأدعو الطبيب

ولكنه كان قد فارق الحياة ، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة . ووقفت أمامه إحسان ذاهلة لاتقوى على تفسير ما حدث كيف حدث ! !

القديس لإباد

تحلل (١) القديس من قيود الوطن والأهل والأصدقاء ، ورحل يبلغ رسالته للناس ، يبين لهم باطل الدنيا ودنس المال ، ويدعوهم إلى اللحاق به فى هجرته إلى الله وحده ، لا يملك شيئا ولا يستقر فى مكان .

وسار وراءه نفر من أتباعه . رجال جاوزوا سن الثورة والاستهتار ، خشن الجلد والملبس ، إذا نزلوا بلد أسهل إيواؤهم وإطعامهم . . وتشييعهم . ولو لم يتبعوه لظلوا أمام بيوتهم يصطلون الشمس طول النهار . ولكن من هذا الشاب الجميل الذى يسير فى مؤخرة الموكب : مديد القامة عليه سمة النبل ، متئد الخطوة كأنه متبوع لا تابع . ما أصفى بياض يديه ورخاصة أنامله ، يشد بها حافتى مسوحه ، فكأنها مشبك من الأحجار الكريمة . . من يكون؟ ولماذا يسير مطرق الرأس؟

---

(١) نشرت فى مجلة «الرسالة» : العدد ٣٧٦ ، ١٩٤٠/٩/٦ ، ص ١٤٦٦ .

إنه النبيل « ع » الابن الأصغر لسيد مقاطعة نائية . تربى فى كنف العز وعاشر السعداء ، ولم تقع عينه على بؤس . ولما مات الأب وورث الابن الأكبر لقبه وضياعه . دعا أخاه المدلل وقال له : .

— لا أريد أن أصبح مميزاً عنك فأنفرد بالخير كله ، ومقامك فى قلب أبى الكريم كان فوق مقامى ، فإن شئت عشنا معاً لك مالى ، وإن شئت اقتسمنا التركة بالتساوى .

فأطرق النبيل « ع » برأسه ، ولم يجب . غادر القصر واعتكف فى كوخ صغير أياماً طويلة خرج بعدها يعلن لمن حوله أن هاتفاً هتف به بين اليقظة والمنام يدعوه أن التحق بالقديس. فلماترامى الخبر إلى الناس عدوها كبرى معجزاته، وأكبروا فى النبيل نزوله عن الغنى والعز العريض ، واختياره التكفف وسؤال الناس كسرة الخبز فى سبيل الله .

طارت شهرة الأمير النبيل بين الناس وتزاحموا حول الموكب لا ليروا القديس ، فهم لايجهلونه ، بل ليتطلعوا إلى النبيل الوسيم كيف يبدو فى ثياب الراهب . ينصرف الرجال عن الموكب وهم أرضى نفسا وأهنأ بطعامهم وشرابهم . أما الأمهات والجدات فكن يسبحن لله الذى سبقت إرادته، فاختار هذا الوليد لحياة كلها حرمان وقسوة ، وما كان أجدر شبابه بالتمتع واللعب . أما الفتيات فكن إذا رأين يده الناعمة الرخصه فوق المسوح الخشنة وتطلعن إلى وجه الشاب الذى أصبح مناله صعبا بل حراما ، شعرن

بقشعريرة تسرى فى أجسادهن ، وركعن على الأرض يتمتمن بدعواتهن ، ولكن أحداً لم يفلح فى أن يرى عينيه . لماذا هو مطرق ؟ ولماذا يسير فى مؤخرة الموكب، ولو شاء لكان فى أول الصفوف ؟ ليس بينه وبين القديس إلا خطوة واحدة .

وفى يوم مر القديس بحاشيته على قصر منيف ، فسأل عن صاحبه ، فقيل له إنه لثرى عظيم لاهم له إلا اكتناز المال ، ولم يسمع عنه فى يوم أنه أحسن بدرهم ، فعدل القديس عن مواصلة سيره ، ودخل القصر ليهدم منه للشيطان معقلا ، ويظفر بتخليص أرواح ساكنيه فوجد الثرى جالسا أمام مائدته ، تتكدس عليها الأطباق والأقداح ، عن يمينه زوجه ، وعن يساره ابنته ، وأمامه أولاده ، ومن حواليه أتباع وحشم يتطلعون لشفتيه ، لعلهما تنبسان بأمر .

امتلأت الردهة بالأصوات ، ولكن الضجة لم تمنع النبيل — ولعل إطراقه ساعده على إجادة السمع — من أن ينتبه لضحكة رقيقة تحاول صاحبتها كتمانها فلا تقوى . . . هل مبعثها سرور أو دهشة ؟ أم هى سخرية ؟ رفع رأسه فوجد ابنة الثرى تتطلع إليه بعيون ندية كلها أضواء . . . ورأى كيف تحتال حتى جاء مقعده إلى جوارها .

وتفجر القديس يلوم ، وكأن روحه ترمى بالشرر ، ثم يعظ كأن قلبه يفيض بالغيث المنهمر . وسحرت بلاغته الحاضرين

فتقاربت الوجوه وتشابهت السحن ، فما يميز بين السادة والخدم .

واختلت الفتاة بالنبيل ، وجرى بينهما حديث خافت :

— لو أنك مررت علينا من قبل ، لحطت لك هذا المسح على قدك ، فانني أشفق عليك وأنت تتعثر فى أذياله ، وتتيه ذراعاك فى أكمامه ، فقل لى بالله عليك كيف تحتمله ؟

— لا يكربك الأمر ! فلست ذالفاً إلى مرقص ، بل ساعياً إلى رب ينظر إلى القلوب لا إلى الأثواب .

— ويلى إذا ؟ لقد كنت أظن الرقص عبادة ، فما رقصت مرة إلا شعرت أننى أقرب إلى الله منى فى أوقات الفراغ والسأم .

وهنا وجد الشاب نفسه أسير نظرة فاحصة ما كرة هازئة كلها عطف وفهم ، فيها بريق عين النهم وهو جائع مقبل على أشهى أطعمة ، وأضواء لمحة الحبيبة إذا ما شفى الحبيب غلتها .

جرحه نفوذ النظرة إلى قلبه فانقبض ، ولكنه استراح ، لعلمه أنه لو شاء لكان سلطانه على الفتاة أقوى من سلطانها عليه .

فأجابها قاصداً هدايتها ، كأنه لم يغضب ولم يبال :

— وما بعد الرقص ؟ ألا تفكرين فى أن كل هذا سراب ، وأن هناك موسيقى غير موسيقاكم ؟ اللهم إن كلى آذان لسماع أناشيد التسابيح بحمدك ، الصاعدة من الكون ، المدوية فى الفضاء، فأسألك اللهم أن تجعل من قسمتى سماعها !

– إن الله قد أغدق نعماءه على الكون، ولم يحرم منها إنساناً له قلب وبصر ، فذهابك الآن تقرع باب الله دليل على أنك عشت إلى اليوم غافلا عن جماله . وهذا ماض سيعقد لك فى مستقبلك وإن جاهدت . خذها عنى : إن الله لا يحب من عباده السائل اللحوح اللجوج ، ولا من يستعين للوصول إليه بمسبحة طولها أمتار . . . ثم مالت الفتاة على أذنه تقول :

– هل اعترف أنك فهمت أننى أعلم لماذا ارتديت المسوح . أنت طموح ، مبدؤك إما الكل وإما العدم . تركت الثروة لأنها نصف ، والدنيا لأن كل لذة فيها تنقضى ، فاذا هى تقصر عن حد تتخيله ، وتسير فى مؤخرة الصفوف لأنك لست على رأسها . ولو وقفت بين يدى الله لسألته . ما وراءك ؟ فتواضعك هو الكبرياء ، وزهدك هو غاية الطموح . إننى أعلم أنك نشأت يتيم الأم ، ولو عاشت لوجدت فى عطفها ما يرطب قلبك . وما أشبهه الآن بصخرة فى أعلى الجبل . . . ومع ذلك لم يفقد الأمل فيك . لقد اخترتك لنفسى ، فابق : انظر إلى ، وتمتع بجمالى . ستعلمك قوة حبى كيف تؤمن أولا بإنسانيتك، ليصح إيمانك بعدها بالله . إن لأبى جماعة من مهرة الموسيقيين ، إذا وقعوا على آلاتهم أرقصوا الجماد . سأجعلهم يعزفون إذا أذن رئيسكم ، ولا أظنه يرفض ، وإلا لما كان قديساً – فماذا عليك لو خلعت المسوح وارتديت أبهى الأثواب ، فقمت إلى وانحنيت أمامى ، وتناولت

يدى ، ودارت ذراعك حول وسطى ، وضممتنى إلى صدرك ورقصنا فتمثلت النغمة فى حركاتنا ، ثم أنفلت عنك وأنا أخبر بك وأنت أدرى بى . . . وسترى أنه لا يزال هناك أمل .

انهد كل شىء من حوله . لو أنه أطاع وسواسه لهوت يده عليها يشدها من شعرها ، ويجرها على الأرض ، ولداسها بقدميه أو لمال عليها يغمرها بقبلاته ، ولكنه خطا خطوة ليس عنها نكوص ولو نكث لما صدقه من بعد ذلك أحد ، ولا صدق هو نفسه . ولقد بقى فى أذنه من كلام الفتاة لفظ (الأمل) . إنه سيظل حيث هو ، جاهدا فى طريقه ، محتملا مالا تقوى على احتماله الجبال ، آملا أنه سيرى فى النهاية بارقة الرضا فى وجه ربه الكريم . . . ولكن الآن ! الآن ! الحياة كلها أمامه فى متناول يده . آلاف الأصوات تناديه : أقبل ! اشرب ! إننى عطشى .

وكان القديس لا يزال يعظ ، ورويداً رويداً تطأطأت الرؤوس على الصدور ، وتصاعدت الآهات . وانفجرت الدموع ، وركع الجميع أمام القديس ، يلثم رداءه من لم يستطع الوصول إلى يديه المرفوعتين إلى السماء .

وترك الثرى مائدته ، وقف يقول للقديس بصوت يغالبه البكاء :

ــ أسلمت قيادى إليك ، فأنا منذ اليوم من أتباعك . سأترك

القصر وما فيه من متاع وما حوله من ضياع ، سأترك مخازنى بعتيق شرابها ، والحقل بعجيج دوابه ، سأتبعك كظلك ، ولن أكون وحدى ، بل سيتبعنى أيضا كل هؤلاء : زوجى، وأبنائى وزوجاتهم ، وبناتى وأزواجهن ، والأصهار والأتباع . أرنا الطريق ونحن فى أثرك .

لم يحر القديس جواباً ، لم يتعقد جبينه ، فهو وضاء منير. ولم يزم شفتيه ، فابتسامته الجميلة هى هى ، ولكنه غائب عن الجمع ، نظرته تائهة ، لعله يستمع إلى وحى خفى يقول :

— لو تبعوك لخرب القصر ، وبارت الأرض ، ونفقت الدواب . ومن أين لك إطعامهم وإيواؤهم وإيجاد عمل لهذا الجيش العرمرم ؟ هل يتكففون الناس مثلك ؟ والقديس من الواصلين الذين يستند إيمانهم على صخر لا يتزعزع ، لا يعرف الشك ولا الريبة والتهكم . لم يثر فى قرارة نفسه ولم يقل : « إذا ما حكمة رسالتى؟ وما قيمة المبدأ الذى خرجت أبشر به ؟ وكيف يكون الكيل كيلين والصاع صاعين ؟ وإن كان ما يصح لى هو الحق ، فلابد من أنه يصح للناس أجمعين » .

لم ينقص إيمان القديس ذرة ، ولم يهتز لحظة . فكيف يكون قديساً إذا بدت له المسائل كما — تبدو لبقية الناس — متناقضة مضطربة ، مضحكة مبكية ؟ لهؤلاء القديسين نظرة تشمل الكون

وتفهم الأسرار فما يبدو عجيباً هو ذات الحكمة ، وما يبدو متناقضاً هو عين الاتساق . قال القديس بصوت كأنه يخرج من كهف عميق :

— يابنى ! أحمد الله أن هداك أنت ومن معك للحق ... على يدى ! إن الطريق الذى تريد أن تسلكه وعر ، لايقوى عليه إلا القديسون أمثالى : فامكث مكانك وأقبل على عملك ، واسكن إلى زوجك، وداعب أولادك وبناتك، وأشرف على شئون خدمك وحشمك ، وحقولك وضياعك ، وتمتع بأكلك وشربك ، على أن تعدنى أن تفعل الخير وتذكر الله . تمثله لنفسك فى كل لحظة حتى تعلم أن كل ماحولك زائل ، وأنك ملاق ربك فمحاسبك حساباً لايضيع فيه مثقال ذرة من خير أوشر .

بدا الوجوم على وجه النبيل وكأنه لم يفهم شيئا . فاستمر القديس يقول :

— لا تحزن ، إنك ستمكث فى القصر — فى نظرك — ولكنك ستكون مع ذلك من أتباعى . ماقيمة التمسك بالذيل واقتفاء الخطوات ، فى حين أن الروح متبلد والذهن غائب ؟ ستتبعنى بروحك ، بإيمانك . . . ولك على أننى لن أنساك فى يوم . فلن يغيب عنك ندائى بل سأحمل شخصك فى قرارة قلبى . سأنشىء لك ولأمثالك طريقة خاصة بكم تلتحقون بها ، فتربطنى وإياكم .

وعادت الردهة إلى هرجها ومرجها ، ودبت فيها روح البهجة ودارت الأطباق والأكواب ، وسكن الثرى إلى زوجه ، وداعب أولاده وبناته ، ونادى كلبه الأمين فأقعى تحت قدميه .

والتفت النبيل (ع) فوجد الفتاة عن يمينه ، والقديس يهم بالانصراف عن يساره . . . ولكن هاتفاً هتف به ، فإذا هو يتمتم لنفسه : نعم ! لاتيأس من رحمة الله .

فجمع أطراف مسوحه ، وجرى إلى الجمع ، واتخذ مكانه بينهم ، لا فى آخر الصفوف هذه المرة ، بل وراء القديس كأنه يلوذ به وتحرك الجمع يرددون وراء القديس قوله :

« اتركوا الباطل الزائل واتبعونى ! »

ووقفت الفتاة صامتة برهة ، ثم همست تقول :

— ياله من غمر مسكين لم يفهم الوحى . لما نادته رحمة الله أن ابق فإذا به يولى عنها وينصرف !

ثم ضربت الأرض بقدمها وصفقت تقول :

— موسيقى ! رقص !

بیخ و بنیاد

كم (١) من مرة قطعت فيها هذا الطريق معك ! ذراعك فى ذراعى ، فما شعرت أطويل طريقنا أم قصير ؟ أفى يومنا المسير أم فى غد لم يأت بعد ؟ أم هو فى ماض من العمر قد ولى وفات .

كان الطريق هو الذى يقبل إلى . يأخذ بيدى ، ويرينى اتصاله بالأفق، بالسماء، بالأفلاك... على جانبيه دور هادئة المأوى كصدور الحاضنات ، ويمر بنا أناس كل منهم شعاع من نور الله . . .

أما الآن ، بعد اختفائك ، فهذا الطريق بعينه أقطعه وحدى فلا ينتهى . المسير سخرة ، والأفق قيد ، والسماء غطاء ، والنجوم ترمق الأرض شزراً . . . الدور سجون والناس أطياف ذاهلة لاتدرى ما القدر . وإن شكت كفرت . .

***

مارأيت عاملا فى ترام أو فى متجر أو فى مقهى إلا سلم

(١) كتبت سنة ١٩٤٠ ، ونشرت لأول مرة مع المجموعة ، يوليو ١٩٤٤ ، وهى اقرب للشعر المنثور .. أو ما أصبح يعرف اليوم بالقصيدة النثرية .

عليك سلام الترحيب والإعزاز ، فالحياة المتدفقة من روحك تمسح عن النفوس جميعها صدأ الألم والحزن ، وتنفض عن الوجوه رماد البؤس والشقاء .

وأنت ، لاتستقر نظرتك على وجه واحد ولا تتريث .. تهبين ، وما تقدرين أى مال تنثرين ؟ أفأنت عمياء كأمك الغريزة وأبيك الحظ ؟ .

***

السينما مزدحمة وأنت لاتعبثين بأحد . المشهد مؤثر ، والناس يبكون ، وأنت ضاحكة :

— أأبكى من خيال ؟

ياأختاه ؟ ! لابكيت أيضا من حقيقة ما عشت ، . . .

ومن يدرى ! لعلك قد انصرفت عنى يوم اختفائك عابثة تقولين :

— أأبكى من خيال ؟ .

***

نقلت إلى أن خالتك ، أو تلك التى تزعمين أنها خالتك ، حدثتك عنى بالأمس وقد تركتكما فى العربة :

— أهذا الذى تذكرين ؟ إنه ساذج ، هو فى يدك كالعجين فلتهنئى به .

ما آلمنى هذا الوصف ، بل رحبت به ورضيت : صدقت نظرتك فى أم لم تصدق ، سيان عندى : إن الحب الذى يغمر قلبى

هو كل ما أسألك عليه من أجر . فلا يهمني تصفيق النظارة أو صفيرهم . . .

***

ما أظنك أحببت أحداً أو شيئا حبك الثوب الجديد . هو حب صادر من قلبك ، عائد إليه ، فأنت به قريرة العين ، سعيدة ناجية من سيطرة الغير . . . .

على لساني دعاء :

ــ ألا فليذلك الحب يوماً . . .

ولكن قلبي يهمس :

ــ خيب الله مناك . . .

***

ماذا تظنين ؟ أحسبت يوم احتفائك أنني سآوى إلى عشنا فأمكث أترقب ميعادك ، فإذا مضى تشاغلت بكتاب أقرؤه ولا أفهم منه شيئا ، ونظرت إلى الساعة مرة وتثاءبت أخرى حتى إذا ما انتبهت إلى مشاغلي التي أهملتها من أجلك ، هبطت الدرج سريعا ، وانطلقت إلى الدروب والمسالك ، واختلطت بالناس . . . أو يدور بخلدك أنني عندئذ أنسى كل شيء ؟ هيهات لخيالك ، مهما سكر وعربد ، أن يدرك ما فعلت . . . لبثت أنتظرك ساعة ، ثم ليلة ، ثم يوماً ويومين ، أسبوعاً وأسبوعين ، شهراً وشهوراً ومازلت أنتظرك . وأنا أعلم أنك لن تعودى ولكني أخشى — إذا أنا لم أنتظرك وشاء القدر أن تعودى أو أن ألقاك فى الطريق —

أخشى حينئذ أن تكون لهفتى على رؤيتك قد طواها النسيان وأطفأ أوارها . ولست أريد إلا أن أقابلك مشبوب العاطفة ، واله القلب ، ظامئ العين . فأنت لو تعلمين عزيزة على ، وهيهات لى أن أبتذل قدرك عندى . . : فلأتحمل الألم طول الدهر خوفا من إساءتك فى لحظة عابرة قد تأتى وقد لا تأتى . . .

***

اشتريت لها الحذاء فلبسته بعض اليوم ثم خلعته :

ـــ حذرنى الطبيب من الكعوب العالية .

وألقته عنها ميتاً فى عنفوان الصبا. منعىّ كرهى لهذا الحذاء السخيف الذى هم بأذاها من أن آسف على موته السريع . . . .

***

أيتها الفتاة الغريرة ! كيف لم يقو مكرك على ستر سذاجتك الكامنة فى نظرتك . أأنت ساذجة قد تعلمت المكر ، أم ماكرة قد تعلمت السذاجة؟ اكذبى ما شئت وامكرى ، فليس أحب إلى قلبى من كذبك ومكرك . . .

***

هذا الأثاث اشتريته على عجل من أجل عشنا : ما نقبت ولا اخترت. ظل طول رفقتنا أنانياً أبكم . لم تحيه نظرة فاحصة من عينيك . ما سمعتك راضية عنه أو ساخطة عليه . وكنت إذا انتظرتك وفات ـــ كالعادة . ميعادك ، أتطلع إلى قطعه واحدة واحدة ، فما حنت يوما وأسعفت تساؤلى بجواب . حتى إذا أشرقت شمسك تلاشى كالظلام من حياتى ؛

ولكن ها قد حل يومك – ككل ظالم – أيها الأناني الأبكم. الآن بعد اختفائها نطقت، بل ما عدت تطيق السكوت. لا ينقطع تساؤلك «أين هي؟» «متى تعود؟» يكاد ينشق خشبك عيونا جائعة تتلهف على نبسة من شفتي، وتكاد تتمزق منك أذرع تتشبث بي وتستجديني الجواب:

أيها الثرثار! لج في الكلام ما شئت. فأنا اليوم – ولم العجب؟ – كما كنت أنت بالأمس – أبكم! ولكن لا عليك أيها الوفي الأمين أيحل بجريح أن يعبث بجريح؟ ليس من رباط بين القلوب أقوى من العاهة المشتركة. أنا أيضا أيها الرفيق الكريم لا أدري أين هي ولا متى تعود! فضم بلواك إلى بلواي لعلها بهذا عليك تهون...

أيها الرفيق اللقيط! لأنت عندي الآن أعز من أطهر الأبناء.

***

أيتها الفتاة الغريرة... لم يكن لي أمل فيك، ولا بنيت من حبك أكواخاً ولا قصوراً. لا يركن إلى الأمل إلا من قصر يومه فاختلس من غده.

أما أنا فقد كان حاضري يفيض بي ويفيض عني.

كان! فكل ذلك قد ولى وفات. وكأن الذي أغدق علي بالأمس غير مسئول – يتقاضاني اليوم ثمن الإسراف بالحرمان.

وكم من محروم مظلوم!...

***

بعد أيام قلائل من لقائنا كنت قد قصصت عليك ماضي، وكل حادثة ساقتني إليك. أما أنت فقد مر الحول وبعض الحول ولست أدري عنك شيئا: ما هممت بسؤالك ولا شكا قلبي من

ظمأ . فليس الغموض الذى يحوطك إلا انبهار العين من نورك الوهاج . وهل لك ماض ؟ إنك لست بنت الحوادث ، بل أنت أم الحياة ! . . .

* * *

خاللتك عاماً وبعض عام . فما سمعتك تنطقين بفكرة أو تبدين رأيا . . ما تلوثت شفتاك بالحكمة ، ولا نضح لسانك بالفلسفة . .. ما دلست الحوادث عليك معانى موهومة مزيفة ليهتز لها رأسك استعبارا . . . ماسمعتك تذكرين ولا تأملين . لاماضى لك ولا مستقبل ، بل كنت فى كل لحظة كمال الحياة لتلك اللحظة . تنفجر منك الحياة كمنابع الأنهار ، لا يهمها أتبدد النهر أم اغتاله مستنقع . أتبخر هباء أم سار لغايته إلى البحر البعيد . تثب الحياة الغضة من عينيك . تسيل على صدرك . تتدفق من على جسدك وأنت لاتشعرين . وكنت أنهل من معينها الصافى فأجد فيه نشوة لم أجدها من عتيق الخمور . . . وأنت — لشقائى — لاتشعرين . فليس أكبر الألم أن لايشعر الحبيب بألمك ، بل أن لايشعر بسعادتك . . . . . .

* * *

ما من مرة احتضنتك بين ذراعى إلا شعرت بقسوة الموت وظلمه . هذا الجسد الغض المتألق ، تنفجر منه الحياة ، يصبح يوما ما أبخرة عفنة وعظاماً نخرة . . .

* * *

ألبستها العاملة أمام المرآة كل ما لديها من معاطف ، واحداً بعد واحد ، فإذا بجمالها يطغى على التغيير والتبديل ، تبدو لها في كل معطف فتنة جديدة . . .

وددت لو استطعت أن أشتريها لك جميعا . . .

عادت إلى المعطف الأزرق . وجربته مرة أخرى، ودار جسدها أمام المرآة . وجهها ساكن ، ونظراتها ثابتة على توأميها . . . : « رفقاً بجيدك يافتاتي ! » ثم خلعته ، وعادت إلى بقية المعاطف فلبستها كلها واحداً بعد واحد ، ثم أشارت إلى المعطف الأزرق وقالت متراخية :

— هذا ! .

وهكذا تشاء الصدف أن لا يتعلق ذوقك إلا بأغلاها ! .

— تريثي ! إذا لم يعجبك هذا المعطف فغيره كثير . تعالى أريك متاجر أخرى :

لمسته بطرف إصبعها وقالت :

— أقضي به هذا الموسم ، وفي العام القادم أشتري غيره . .

كم وددت لو أنك قلت : « تشتري لي أنت غيره » . .

دعوت الله أن يقسم لي شراءه ، كما يدعو السقيم ربه أن يمن عليه بالشفاء . . .

***

كنت معك فى أحضان الرذيلة من أتقى الناس ، لا تذوق شفتاي الخمر ، وما بيني وبين الله عامر . . .

أما الآن ، بعد اختفائك ، فقد سكنت إلى الخمر ، لا لأنساك ، بل لأقوى على جر الماضي إلى الحاضر . لأعيش معك من جديد . فأنا اليوم سكير صالح مطرود من رحمة الله . . .

❊ ❊ ❊

لقيتك ذات يوم ، على غير ميعاد . فى منعطف طريق . أغلب الظن أنك تسكنين قريبا منه ، وأنك خرجت عجلى لأمر . كنت عاطلة من الزينة ، غير مسرحة الشعر ، مهملة الملابس . على كتفيك معطف لعله معطف أخيك ، وفى يدك حقيبة لعلها حقيبة خالتك .

كنت لا تشعرين بنظراتى تعانقك من بعيد ، وأنا واقف أتردد بين لذة اللقاء وراحة التشفى . . هذه التى أسرتنى مضاعة بين الناس لا يشعر بها أحد . ملكة نزعت عن عرشها ! هذا هو الطير المحلق يهبط على الأرض . أين جمال جناحيه وهو صاف فى السماء ، من مهزلة اضطرابه وهو يحجل ويقفز ؟ !

ولما ذهبت إلى عشنا . كنت أهدأ نفسا . حسبتنى أشد قوة على التخلص من سيطرتك ، ولكنك ما كدت تجتازين الباب حتى هتف قلبى : « هى والله » ؟ . !

كونى ما شئت ، ليمسخ الإهمال صورتك ، ليقس الضنا على محياك ، بل فليشوهك الزمن الذى لا يرحم ، فأنت أنت عندى . لأنت

آخر علمى وذوقى ومنتهى تجربتى . لقد كملت بك حياتى وتم وجودى ، ولن أزيد بعدك شيئا . حتى خيانتك لم يزدد بها علمى : هى تجربة أصبحت بعدها أكثر فهما لألم الخلق وأشد سخرية من ألم الخلق . فهذا العطف الذي أبذله باليمين ، تسترده سخريتى باليسار . . .

❋ ❋ ❋

ولكن صبراً ! سيأتى اليوم الذى أنساك فيه . . . حين يشيب شعرى وتتساقط أسنانى ، وتنطفىء عيونى : حين يحتضننى الفراش فلا أقوى على التخلص من ضمته، وأستسلم إليه مضطراً وأستريح : حين أفلح أخيراً فى جر رجلى جرا لأبحث عن الشمس، محدقاً فى الناس وهم حولى ، تحديق المشنوق فى جلاديه : حين لا أستطيع أن أرى شيئا ، إذ يكون شبح الموت واقفاً أمامى . أعد أنفاسه قبل أن يعد هو أنفاسى . . .

عندئذ سأنساك ! فليس أقوى من ذكراك عندى سوى الموت . . .

ولكن ، ألا من يخبرنى عندئذ كيف أمسيت ؟ وكيف مرت عليك السنون ؟ . . .

❋ ❋ ❋

هذه المخلوقات المنتشرة فى الطريق ، هاربة من الدور تارة ، هاربة إليها مرة أخرى . . .

هذه الحثالة المتوسدة أرصفة المسالك . . .

هؤلاء الباعة الجوالون فى الزحام ، بعيدين بأنفسهم عن الزحام كالأرواح الضالة . . .

كلهم ينطق بالقدم والدوام : ما حلول جيل منهم محل جيل إلا كالثعبان يبدل جلدا بجلد . . .

هكذا كنت أراهم . . . أما بعدك فهم لدى الآن سياح يهبطون بلداً غريبا . وجوههم بلهاء فى جهلها : نظرتهم تائهة لاتستقر ، ولا تقوى أرواحهم المهاجرة أن تقول عن شىء : « هذا لى ! »

كل هذا لأنهم لم يسعدوا يا حبيبتى برؤياك . . .

* * *

عندما كنت أخرج معك فى هدأة الليل ، كنت أشعر أننا وحدنا فى هذا العالم ! تناسينا الأفلاك والنجوم ، نسينا الليل نسينا الناس .

وكان فى نسيانها أكبر اللذة والسعادة .

أما اليوم . بعد اختفائك ، فأسير والأفلاك والنجوم لم تتغير ، والليل مغمض الطرف ، والناس هم هم . . .

فأجد فى نسيانها أكبر الألم والعذاب . . .

* * *

ألف ألف فتاة مثلك عاشت ، فلمعت عيناها لمعان عينيك ، وافترت شفتاها عن مثل بارق ثغرك ، ثم طواهن الموت واندثرن فى التراب . قبلة واحدة منك لى كانت تكفى لبعث هؤلاء الموتى الجائعات

للحب بعد طول الرقاد . . . فى قبلتك لهيب ألف ألف ثغر ظامىء . . .
أصبحت من أجلك أحب الموتى مثل حبى للأحياء . . .

* * *

وأغرب ما أعجب له أننى لاأسأل عن سبب اختفائك : وهل يستطيع من عاش معك معلوم المنطق ، أن يعود فيتفهم العلل والأسباب ؟ سأسأل عن السبب حينما يهدأ قلبى . . إذا فلن أسأله ما حييت . وإذا مات العالم معترفاً بعلمه — فسأموت أنا معترفاً بجهلى . .

* * *

قرأت بحثا كتبه شيخ من شيوخ الدين يعتمد فيه على المنطق العقلى ، ليثبت أن الإنسان مسير لامخير . . فما اقتنعت وما فهمت أوله من آخره . .

وتجيئين أنت ، أيتها الفتاة الغريرة ، فتكفينى نظرة واحدة من عينياك لأومن بالقدر وبالجبر . . لأننى ألغيت معك منطقى وعقلى . وقنعت بالروح فآمنت .

* * *

لجأت إلى الكتب المقدسة الطاهرة أستنبئها : أيجيب الرحمن دعوة العاصى ؟ فإنى أريد إذا ما وقفت بين يدى الديان أن أسأله ، قبل أن يغفر لى ذنوبى ، أن يغفر لك ذنبك . . .

* * *

العالم مضطرب . والمدافع تقصف ، والدماء تسيل . الدور تخربت ، والنساء ترملت ، والأرض أمنا العجوز فى اللهيب . . . فماذا يكون شقائى باختفائك مع كل هذه الآلام ؟ أأصرخ ليخرب العالم مادمت أنا غير سعيد ؟ لا وألف مرة لا ، بل أدعو الله أن يعيد السلام حتى تنعمى ياحبيبتى أنى كنت بشبابك فى ظلاله وإن حرمنى هذا السلام للمرة الأخيرة . . لذة التشفى !

* * *

فى المساء أقول : الفرار الفرار يانفس . عبثا حاولت الاستقرار والاطمئنان للخلو والعدم . من يلومك بعد أن ذقت معها طعم الوجود ؟ عودى . ارجعى أيتها النفس الفطيم إلى ظلامك وأوهامك ، فلست والله تدرين بعد اليوم ، إذ تطوف بك أشباح السعادة : أهى ذكريات الماضى أم آمال المستقبل ؟

وفى الصباح أنتفض على بسمة الفجر ونشوة الطير — أسمعها تقول : « أنت ياهذا الذى سعدت بالحب : قم ! إنما العيد لك ! » مهلا أيها الطير ! إنك تعيش ملء لحظتك للحظتك ، بيد أن نفسى تتوقع عند الصباح قدوم المساء . . .

* * *

ودعت القاهرة عهد السلام ، فأطفأت أنوارها ، وفاضت كالقدح أترعته يد مرتعشة لسكير زائغ البصر . . . واكتظت طرقاتها بأغراب ومهاجرين ونازحين من ملل ونحل شتى ، لم يبق

موضع لقدم فى ترام، أو فى سيارة أو فى ملهى. رأيت الكثيرين فى هذا الزحام كالأسرى على وجوههم علامات التأفف والكرب والاختناق، يودون الخلاص. فلا شيء يضيق به الإنسان ضيقه بقرب أخيه الإنسان ...

أما أنت فكنت فى الزحام كالسمكة فى الماء، تطبق عليك الجموع، ثم تنكشف وتطبق، وأنت ناعمة البال قريرة العين، بل كنت أجمل ما تكونين وأنت رافعة الرأس فى الزحام، تتلاطم أمواج البشر حول منارتك: ما سمعتك تشكين أو تتأففين ... ما زاد تلفتك ولا ضجرت نظرتك، بل كنت مرحة كأنك فى مهرجان ... وكما رأيتك سعيدة بالحياة رأيت الحياة سعيدة بك...

* * *

يوم أن خرجنا من متجر الأزياء قبيل الغروب وأنت تقولين:

— ... أعجبنى الثوب لولا أزراره ...

ودوت صفارة الإنذار، وهاج الخلق وماج: هل تذكرين كيف رأينا لابسى الجلابيب والحفاة هازئين، والموسرين هاربين؟ ورأينا شباباً فى شرخ الصبا غير عابئين، وشيوخاً على حافة القبر زايلهم كساحهم فهم يجرون إلى المخابىء نشطين ...

وقفت مكانك وتلفت يمنة ويسرة، ثم قلت:

— أنا خائفة ! ...

أخذتك إلى أول بناء لقيناه ، وجلسنا مع بوابه النوبى كأن ثلاثتنا من أسرة واحدة لم تفترق طول الحياة . . .

ولما ضجت السماء بأزيز الطائرات ، واشتعلت بلهيب المدافع وانفجار القنابل . . . ولما اهتزت النوافذ والأبواب ، وعلا الصراخ . امتقع لونك . وعرقت يدك وطال صمتك . . .

ثم هتفت الصفارة بالأمان ، فقمت واقفة ، ووضعت ذراعك فى ذراعى وخرجنا ، وكان أول حديثك :

— . . . لأن طرف الزر الأوسط على الكم اليمين شبه مخدوش . . .

***

تنقلت بعدك بين نساء كثيرات : لم أزد مع كل منهن عن لقاء واحد، وفيهن من هى أجمل منك وأشد سحراً ، ثم أفر ولا أعود ؛ لماذا ؟ أللحسرة ؟ لا . فأنا أعلم أن اختفاءك قد أذابك فى يم الحياة ، وهيهات أن تعودى ، ولو عدت لعدت غير ما كنت . أللغيرة ؟ هل تخشى روحى أن تكون كل امرأة جديدة بين ذراعى رجلا جديداً أنت إذ ذاك بين ذراعيه ؟ قد يكون هذا ، ولكن هل لى أن أصارحك ؟ انى أفر ضنا بنفسى على غيرك ؟ فهذا الذى تحسبينه فى انمحاء هو غاية الكبرياء والاعتزاز . . . هو الحب ! .

***

أحببت قبلك اثنتين : واحدة ثم أخرى : كم أقسمت صادقاً بين أيديهما أحر الإيمان على الوفاء والإخلاص حتى

الموت . . . ثم افترقنا . . . وهدأت . . . ولم أعد أذكر شيئا . . .
غير أني كنت في غيبوبة النشوة أنادي الأولى بين ذراعي الثانية .
وكم فاجأت شفتي تتمتمان باسم دفين وأنت بين ذراعي لاتشعرين . .
فهل الذي جرى عليهما سيجري عليك أنت .أيضا ؟ إن الزمن يلح
على بالخلاص فأعصيه ، والمنطق يسخر مني فأسخر منه ، والحياة
تتشبث بتلابيبي فأتملص من قبضتها وأفر. ولكن هل أقوى على مغالبة
كل هؤلاء الخصوم مجتمعين ؟ سأنساك ! سأنساك ! ولكن هيهات
لي أن أنسى أنني نسيتك . . .

***

الآن بعد اختفائك . أقول وأنا وجل : هل أحببتها لأنها
ذكرتني بمن مضى ؟ أفي نظرتك أم في صوتك أم في سذاجتك
لقيت من خلت أنني دفنته ؟ ولكن لا ! ما فات مات . مات
إلى الأبد . ولم نخدع أنفسنا ؟ الذكرى إنما تجر من القبر هيكلا
نخراً بالياً في لون أغبر وكفن حائل ، أجوف قد نزع منه الكلام .
نومىء فلا يفهم ، ونشير فلا يفطن . علم متحجر ، قائم ونحن
نضطرب وندور ، فلا نعرف إقباله من إدباره . إن بصيصاً من نور
خافت ينبعث من حي ، كاسف جميع الشموس الغاربة ! الآن
أومن أنني أحببت من سبقك ، لأنهما كانتا تشبهانك أنت . . .

***

يارب ! يا أرحم الراحمين ، وسعت رحمتك حتى المهزومين

وثورة المحرومين وقد تاهوا فى ملكوتك . ما أجهلهم وإن كانوا مؤمنين ! :

وسعت رحمتك من أضلته بصيرته ، فجحد ، وأنكر ، وكفر كفر الأعمى بالنور : . .

وسعت رحمتك من ركبه الجهل ، وساقته الحماقة فتعالى وأبى السجود ، آنفا من أن يرسف فيما توهم من قيود .

بل وسعت رحمتك من أغدقت عليه من نعمائك ، فجدف وتمرد : :

لاأقول بمثل قولهم : لماذا خلقت الشر ؟ لماذا برأت الرذيلة ؟ ولكنى أسألك ياإلهى : لماذا جعلت الحق على النفس ثقيلا ، والباطل هيناً ؟ لماذا خلقت الفضيلة مملة والرذيلة فاتنة ؟ لماذا خلقت الحب روحاً هائمة لاتخضع لعرف أو لقانون : طيراً لايحط إلا ليحوم ؟ يفزعه الأمن والسلم والدوام ، والحياة عنده وجد وولَه وهيام ؟

لايستقر ولا يهدأ ، لا تزيده العبرة إلا استهتاراً ، و لا النصيحة إلا عناداً : : : لم جعلت السعادة سرابا والوفاء محالا ، والنيات مقعدة ، والنسيان عداء ! :

أنت مطلع على الضمائر والقلوب ، فاعطف اللهم عمن تثاقلت قدماه فى الطريق السوى فلم يقو على اللحاق بالقافلة

تتفصد عرقاً ومللا . . وانحرف إلى البيداء ضالا يناجي النجوم ، وكل زاده نجواه لنفسه :

– ما ظنك بالله العلي القدير ، الرؤوف الكريم ! .

***

أجوس بعدك خلال القاهرة ، فأعود من أحيائها الأوربية بقلب فاتر كليل ، وطعم بين المر والحلو ، كفقير يرتد عن زيارة ابنه الغني العاق ، وإن عز على قلب أبيه . . . يضيع مني شبحك في الأوبرا وجروبي . وبين شبرد والكونتنتال ، فاذا قادتني قدماى إلى سيدنا الحسين ومررت تحت البوابات الهرمة ، ووقفت أمام الجوامع العتيقة ، هصر الشوق قلبي هصراً . . .

فأنت عندى هذا التاريخ .

وإذا مافاض بي الحنين إليك أبكر إلى قصر النيل مترقباً جموع الفلاحات قادمات من الريف ، على رءوسهن سلل الخضر ، ثيابهن سود ، على أرجلهن الطين ، معتدلات القوام ، في وجوههن المجهدة عيون صابرة . لا ينقطع تدافعهن ، ولا ثرثرتهن . . . عندئذ ألقاك . . فأنت عندى هذا الوطن . . .

ويغلبني الوله على أمرى يوم « طلوع القرافة » حين أتتبع بنظرى عربات الفلاحين البطيئة تحمل الأسرة كلها رجالا ونساء ،

شيوخاً وأطفالا ، أمامهم « السحارة » المنحدرة من قبور الفراعنة ، يهجرون مدينة الأحياء ليستقبلوا العيد فى مدينة الأموات ،

فأنت عندى هذا العيد ! .

***

الآن أذكر ، والآن فهمت . . .

فى صباح اليوم الذى اختفيت فيه ، كنت أجول فى خان الخليلى ، فنادتنى من سجنها الزجاجى مسبحة جميلة وأشارت إلى أن خذنى معك .

تناولتها بود ، وانعقدت بيننا منذ اللمسة الأولى أواصر صداقة وثقت أنها ستدوم . تساقط حباتها كقطرات الماء على الغدير . حديثها الخافت إلى : عن الألفة بين القلوب فى عالم الوحدة ، عن الطمأنينة فى اللقاء المقسوم وإن طال الغياب ، عن الوجل من الفراق المحتوم رغم اللقاء . . .

عدت بها إلى عشنا ، فلم أكد أدخله حتى انقطع من حيث لاأدرى خيطها وتناثرت حباتها . أهو نذير أم شيطان يغار ؟ جثوت على الأرض ، وجمعت حباتها ، وعددتها فاذا هى تنقص حبة . دسست يدى ، ونبشت بأظافرى تحت المقاعد والسجاد . ولكن عبثاً ! فحزنت وأسفت .

قد تسألين : أكل هذا العناء من أجل حبة واحدة صغيرة ؛ وفى يدك منها عشرات ؟ .

فأجيبك : هكذا مسبحتى ! لا يحيا جمالها إلا بهلة الحبة الواحدة الصغيرة . . التائهة . ! (١) .

(١) لعل القارىء قد لاحظ أن هـــذه المقطوعة الأخيرة التى تتحدث عن الحبة الثالثة والثلاثين فى المسبحة تكون هى نفسها المقطوعة الثالثة والثلاثين فى هـذه الأناشيد أو « حبات » هذه القصيدة من « الشعر المنثور » التى تدور كلها حول ذكرى الحبيب الضائع ..

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل. للشاب. للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وإنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع وال
المتجددة.

سوزان مبارك

Bibliotheca Alexandrina
03347417
36

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع 2000
مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشاب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة
١٢٥ قرشاً